حاصلة على جائزة «هيوجو» لأفضل رواية قصيرة

أغنيَّة من أجل ليا

چورچ ر. ر. مارتن

ترجمة: هشام فهمي

Telegram:@mbooks90

تنمية

الكتاب: أغنيَّة من أجل ليا، رواية
تأليف: چورج ر. ر. مارتن
ترجمة: هشام فهمي
لوحة الغلاف: ميجو
تصميم الكتاب: ريهام السيد
عدد الصفحات: 110 صفحة
رقم الإيداع: 2024/3201
الترقيم الدولي: 978-977-6633-69-8
الطبعة الأولى: 2024

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تنمية
١٩ شارع عدلي شعراوي من شارع طلعت حرب – وسط البلد القاهرة
محمول ٠٠٢٠١٠٠٠٤٣٦٧٧٤٤
هاتف ٢٣٩٢٦٢٤٩ / ٠٠٢٠٢
Email: khaled_tanmia@hotmail.com

A Song for Lya by George R.R. Martin
©The Lotts Agency

مقدّمة المُترجم

تتكرّر كلمة «أغنيّة» كثيرًا في عناوين چورج ر. ر. مارتن، كما في المجموعتين القصصيتين «أغاني النّجوم والظّلال» و«أغانٍ يُغنّيها الموتى»، وكتاب المقالات «أغاني الأحلام» بأجزائه، وفي سلسلة «أغنيّة الجليد والنّار» بالطّبع، وهو ما يعود جزئيًا إلى حبّه البالغ للموسيقى وتأثّره بها، ولو أنه في بعض الأحيان لا يقصد معنى الكلمة الحرفي، بل يستخدمها في سياقاتٍ مختلفة بمعانٍ متنوعة. استخدم مارتن الكلمة أول مرّة في أحد عناوينه في «أغنيّة من أجل ليا»، الرّواية القصيرة التي كتبها في عام 1973 ونشرها في العام التّالي، وكانت في ذلك الحين أطول ما كتب، والعمل الذي عدّه الأقرب إلى قلبه أيضًا.

مَن قرأ «أغنيّة الجليد والنّار» لن تفوته الثّيمات والأفكار المشتركة بين العملين، خصوصًا «صراع قلب الإنسان مع نفسه»، الفكرة التي يعدُّها مارتن «الشّيء الوحيد الذي يستحقُّ أن يُكتَب عنه»، متخذًا من مقولة الكاتب الأمريكي وليم فوكنر هذه منهجًا في معظم ما يكتبه.

Telegram:@mbooks90

كتب مارتن القصة في أثناء إقامته بشيكاجو وعمله بمنشأة للمعونات القانونية. آنذاك، في سنّ الخامسة والعشرين، كان يخوض أول علاقة غرامية جادة في حياته، ومع أنها ليست المرّة الأولى التي وقع فيها في الحب، فإنها أول مرّة -وفق ما ذكره في إحدى مقالاته- بادله الطّرف الآخر الحب. يقول مارتن إن تلك العلاقة منحت «ليا» لُبّها العاطفي، ومن غيرها لكان مثل أعمى يصف الغروب، ويضيف أنه شعر بعد الفروغ من كتابة القصة بأنه تفوّق أخيرًا على كتاباته السّابقة.

تدور الأحداث في ما يطلق عليه مارتن «الألف عالم»، وهو اسم غير رسمي لمجموعة من قصص الخيال العلمي والرّوايات -منها روايته الأولى «موت الضّياء»- تقع أحداثها في العالم نفسه،لكن هذا هو كل ما يربط بعضها ببعض، فلا شخصيات مشتركة بينها، بل أماكن فقط، ولا ضرورة للإلمام بأيٍّ منها في سبيل قراءة عملٍ آخر. كل ما تلزمك معرفته أن تلك القصص تدور في زمنٍ مستقبلي، في عالمٍ استوطن فيه البشر عددًا كبيرًا من الكواكب البعيدة، ومع توسّع إمبراطوريتهم دخلوا في عددٍ من الحروب ضد كائنات أخرى تستوطن المجرة، تسبّبت في حالةٍ من الفوضى والاضطراب. «الألف عالم» هو الاسم الذي يشير إلى الكواكب النّاجية من القتال، في الفترة التي يحاول فيها البشر استعادة الاتصال بعضهم ببعض عبر الفضاء، والتّعافي من آثار الحروب وإعادة بناء الحضارة.

نشر مارتن «ليا» في عام 1974 في مجلة «Analog Science Fiction and Fact»، المعروفة عربيًا باسم «الخيال العلمي التّناظري والواقع»، وفاز عنها بجائزة هيوجو لأفضل رواية قصيرة، كما حصلت على المركز الثّاني في استفتاء جائزة لوكَس، ورُشّحت لجائزتي نبيولا وچوپتر، وأعيد نشرها لاحقًا في مجموعتين قصصيتين، وتُرجِمت إلى اللُّغات الإسپانية والفرنسية والرُّوسية والتّشيكية والرُّومانية.

فالسَّيفُ يُبلي غِمدَه

والرُّوح تُضني الصَّدر

ولا بدَّ للقلبِ أن يتأنَّى ليلتقطَ أنفاسَه

وللحُبِّ ذاتِه أن يستريح

- اللورد بايرُن -

أغنيّة من أجل ليا

مُدن الإشكين قديمة، أقدم كثيرًا من التي شيَّدها الإنسان، وقد ثبت أن الحاضرة العظيمة الحمراء حُمرة الصَّدأ، التي نهضت في إقليم تلالهم المُقدَّسة، هي أقدم مُدنهم قاطبةً. لا تحمل مدينة الإشكين اسمًا، فلا حاجة بها إلى أسماء، وعلى الرغم من بنائهم المُدن والبلدات بالمئات والآلاف، فإن مدينة التّلال هذه بلا نظير. إنها أوسعها مساحةً وأكبرها في تعداد السُّكان، وتقبع وحدها في التّلال المُقدَّسة. عندهم، هي في مكانة روما ومكّة والقُدس في آنٍ واحد، هي مدينة المدائن التي يجيء إليها الإشكين جميعًا في النّهاية، خلال الأيام الأخيرة السّابقة للاتّحاد.

كانت المدينة عتيقةً في أيام ما قبل سقوط روما، وضخمةً مترامية الأطراف وبابل بعدُ مجرد حلم، ومع ذلك لا تُشعرك بقِدمها، فالعين البشرية لا ترى إلا أميالًا وأميالًا من القباب الواطئة المبنية بالقرميد الأحمر، روابيَ صغيرة من الطّمي المُجفّف تغطي التّلال المتموجة كأنها طفح جلدي، داخلها معتم وبلا تهويةٍ تقريبًا، والحجرات صغيرة والأثاث بدائي.

على أنها ليست مدينة كئيبة. يومًا بعد يومٍ تربض في تلك التّلال الوعرة، تُلهِبها شمسٌ وهّاجة تستقرُّ في السّماء مثل ثمرة شمّام برتقالية مُتعَبة، لكن المدينة تعجُّ بالحياة؛ بروائح الطّهو، وأصوات الضّحك والكلام وجري الأطفال، وصخب البنّائين المتصببين عرقًا إذ يُرمِّمون القباب، وأجراس الأصمّاء التي تجلجل في الشّوارع. الإشكين شعبٌ مرح مُفعَم بالحيوية، أقرب إلى الأطفال، والمُؤكّد أن شيئًا فيهم لا ينمُّ عن عتاقةٍ عظيمة أو حكمةٍ عريقة. العلامات تقول إن هذا شعبٌ

شاب، إن هذه ثقافة في طور الطُّفولة.

لكن هذه الطُّفولة دامت أكثر من أربعة عشر ألف سنة.

مدينة البشر هي الطِّفلة الحقيقية، إذ تبلغ من العمر أقل من عشر من سنوات الأرض، وقد شُيِّدت على حافة التِّلال بين حاضرة الإشكين والسُّهول البُنيّة المُترِبة حيث أُقيم الميناء الفضائي. من وجهة النَّظر البشرية، تُعَدُّ مدينة جميلة، فهي مفتوحة في الهواء الطَّلق، وملأى بالممرات المُقنطَرة الأنيقة والنَّوافير المتلألئة والطُّرقات الواسعة المصطفَّة على جوانبها الأشجار. المباني مُصنَّعة من المعدن والبلاستك الملون والأخشاب المحلية، ومعظمها منخفض مراعاةً للمعمار الإشكيني. معظمها، أمَّا البرج الإداري فاستثناء؛ إنه إبرة من الفولاذ الأزرق الصَّقيل تشقُّ سماءً بلَّوريةً.

بإمكانك أن تراه من بُعد أميال في كل اتجاه، وقد لمحته ليانا من قبل أن نهبط، وتطلَّعنا إليه بإعجابٍ من الهواء. ناطحات السَّحاب الكالحة على الأرض القديمة وبالدَر أعلى، ومُدن أراكني الشَّبكية المذهلة أروع جمالًا، إلا أن البرج الأزرق الرَّفيع يظلُّ متَّسمًا بالمهابة إذ يرتفع بلا منافس في عزلة سيادته فوق التِّلال المُقدَّسة.

يقع الميناء الفضائي في ظل البرج، أي إن المسافة بينهما قصيرة ويمكن قطعها مشيًا، لكنهم قابلونا هناك رغم ذلك. لدى نزولنا وجدنا عند قاعدة السُّلم عربة هوائية قرمزية منخفضة السَّقف، يُقرقِر محركها ويستند سائقها إلى عصا القيادة باسترخاء، في حين يقف دينو ڤالكارنجي خارجها مرتكئًا إلى الباب يُحدِّث أحد معاونيه.

ڤالكارنجي هو المدير الكوكبي، الفتى الأعجوبة صاحب المواهب الفذّة في هذا القطاع. شابٌ بالطّبع -وإن علمتُ بهذا سلفًا- وقصير القامة، يتمتّع بنوع حاد قاتم من الوسامة، وله شعر أسود تتجعد خصلاته الكثيفة فوق رأسه، وابتسامة تلقائية دمثة.

منحَنا هذه الابتسامة اللّامعة عندما نزلنا من فوق السُّلم، ومدّ يده يصافحنا قائلًا: «مرحبًا. تسرُّني رؤيتكما». لا وجود هنا لهراء التّعريفات الرّسمية؛ هو يعرف من نحن، ونحن نعرف من هو، وڤالكارنجي ليس بالرّجل الذي يضع قيمة كبيرة للطُّقوس.

تناولت ليانا يده بخفّةٍ ورمقَته بنظرة مصّاصة الدّماء: عيناها الدّاكنتان الكبيرتان مفتوحتان باتساع وتُحدّقان، وفمها الرّفيع مُزدان بابتسامةٍ خافتة صغيرة. فتاةٌ صغيرة الحجم هي، أقرب إلى الهزال، لها شعر بني قصير وقوام طفلة، وباستطاعتها أن تبدو هشّة للغاية عاجزة للغاية... حينما تريد. لكنها تهزُّ النّاس هزًّا بهذه النّظرة. إذا علموا أن ليا تلپاثيّة حسبوها تُنقّب في أعمق أسرارهم، لكن الحقيقة أنها تعبث معهم. عندما تقرأ ليانا حقًّا يتيبّس جسدها كله وتراها تكاد ترتجف، وتضيق هاتان العينان الكبيرتان اللتان تمتصّان روحك امتصاصًا، وتصيران قاسيتين معتمتين.

غير أن كثيرين يجهلون ذلك، وهكذا يتلوُّون تحت نظرة عينَي مصّاصة الدّماء ويشيحون بأبصارهم ويسارعون بإفلات يدها.

ولكن ليس ڤالكارنجي الذي ابتسم وبادلها التّحديق، ثم انتقل إليّ.

أمّا أنا فكنت أقرأ حين صافحته، أمارس إجراءات التّشغيل القياسية كعادتي،

وهي أيضًا عادة سيئة على ما أظن، لأنها تحكم على بعض الصّداقات الواعدة بموتٍ مبكر. لا تضاهي موهبتي موهبة ليانا، لكنها لا تتطلّب ما تبذله هي من جهد. إنني أقرأ المشاعر، وقد بلغتني دماثة ڤالكارنجي قويةً صادقةً لا تخفي شيئًا، أو على الأقل لا تخفي شيئًا قريبًا من السّطح بحيث أستطيع رصده.

صافحنا المعاون أيضًا، وهو رجل أشقر طويل السّاقين في منتصف العمر اسمه نلسن جورلاي، ثم أشار ڤالكارنجي للجميع بركوب العربة الهوائية، وانطلقنا.

بعد الإقلاع قال: «أتصوّر أنكما مُتعَبان، ولذا سنؤجّل الجولة في المدينة ونتجه إلى البرج مباشرةً. سيُريكما نلس مسكنكما، ثم تنضمّان إلينا لتناوُل شراب ونتناقش في المشكلة. هل قرأتما الوثائق التي أرسلتها؟».

أومأت ليا برأسها إيجابًا، وقلتُ: «نعم. خلفية مثيرة للاهتمام، لكنني لست متأكدًا من سبب وجودنا هنا».

ردّ ڤالكارنجي: «سنتحدّث عن ذلك قريبًا. يجدر بي أن أدعكما تستمتعان بالمناظر»، وابتسمَ مشيرًا برأسه نحو النّافذة ولاذ بالصّمت.

وهكذا استمتعت وليا بالمناظر، بالأحرى بالقدر الذي أمكننا الاستمتاع به خلال الدّقائق الخمس التي استغرقتها الرّحلة من الميناء الفضائي إلى البرج.

بسرعةٍ ورشاقة انطلقت العربة الهوائية فوق الشّارع الرّئيسي بمحاذاة قمم الأشجار، محركةً ريحًا خفيفة هزّت الفروع الرّفيعة لدى مرورنا. داخل العربة مظلم فاتر الحرارة، أمّا في الخارج فقد ارتقت شمس الإشكين السّماءَ نحو الظّهيرة، ورأينا لمعة الموجات الحرارية المتصاعدة من الأرصفة. مُؤكّد أن السّكان

رابضون في الدّاخل حول مُكيّفات الهواء، لأننا لم نرَ إلا حركة محدودة للغاية في الشّوارع.

ترجّلنا قرب مدخل البرج الرّئيسي ودخلنا من بهو ضخم يبرق من شدة النّظافة، حيث تركنا ڤالكارنجي ليُحدّث بعض مرؤوسيه. قادنا جورلاي إلى أحد الأنابيب، وانطلقنا إلى أعلى حتى الطّابق الخمسين، ثم مررنا بسكرتيرة لندخل أنبوبًا آخر، واحدًا خاصًا، وواصلنا الصُعود.

***

وجدنا مسكننا رائعًا؛ أرضيّاته مفروشة ببُسط من الأخضر الهادئ، وجدرانه مكسوّة بألواح الخشب، ويضمُ مكتبة متكاملة، أكثر كُتبها من كلاسيّات الأرض المُغلّفة بالجلد الصّناعي، مع بضع روايات من كوكبنا بالدّر. شخصٌ ما أجرى بحثًا عن أذواقنا. أحد جدران غرفة النّوم من الزُجاج الملون، يعطي نظرة پانوراميّة على المدينة البعيدة أسفلنا، ومُزوّد بلوحة تحكُم لإعتام الزُجاج في وقت النّوم.

بدافع الواجب، كحمّال أمتعة كئيب في فندق، أرانا جورلاي لوحة التّحكم. على أنني قرأته بإيجازٍ ولم أجد أي نقمة. متوتّر، ولكن قليلًا فقط، وفي داخله يكنُ ودًا حقيقيًا صادقًا نحو شخص ما. نحن؟ ڤالكارنجي؟

جلسَت ليا على أحد الفراشين التّوأمين، وسألت: «هل سيجلب أحد أمتعتنا؟».

أومأ جورلاي برأسه إيجابًا قائلًا: «سنعتني بكما أفضل عناية. أي شيء تريدانه، ما عليكما إلا أن تطلبا».

قلت: «لا تقلق، سنفعل»، وألقيت بنفسي على الفراش الثّاني، وسألت جورلاي

مشيرًا له بالجلوس على أحد المقاعد: «منذ متى تعمل هنا؟».

جلس بامتنان مفترشًا المقعد بأكمله، وأجاب: «ستة أعوام. إنني أحد الموظفين القدامى. لقد عملت تحت أربعة مديرين: دينو، وستيوَرت من قبله، وجوستافسن قبل ذلك، كما عملت بضعة أشهر تحت زُكوود».

مدّت ليا عنقها مُربّعة ساقيها تحتها ومائلة إلى الأمام لتسأله: «زُكوود لم يبقَ إلا هذه المدة القصيرة، أليس كذلك؟».

قال جورلاي: «صحيح. لم يحب زُكوود الكوكب، وأسرع بقبول تخفيض رُتبته إلى مساعد مدير في مكانٍ آخر. لم أبالِ كثيرًا في الحقيقة. كان من النَّوع العصبي الذي يلقي بالأوامر طوال الوقت ليثبت أنه الرَّئيس».

سألته: «وڤالكارنجي؟».

أجاب جورلاي الذي يجعل الابتسامة تبدو كالتَّثاؤب: «دينو؟ دينو لا بأس به، أفضلهم في الحقيقة. إنه بارع، ويعرف أنه بارع. لم يمضِ على وجوده هنا أكثر من شهرين، لكنه أنجز أشياء كثيرة وكوّن صداقاتٍ عدّة. إنه يعامل الموظفين معاملة لائقة، ويدعو الجميع بأسمائهم الأولى وما إلى ذلك. النَّاس يحبون هذا».

قرأته وهو يتكلم، ولم أقرأ فيه إلا سلامة الطَّوية. ڤالكارنجي إذًا هو محلُّ الودّ الذي يحمله جورلاي، والأخير يُصدِّق ما يقوله.

أردت طرح مزيدٍ من الأسئلة، لكنني لم أجد الفرصة إذ نهض جورلاي فجأةً قائلًا: «لا ينبغي أن أبقى حقًا. تريدان أن ترتاحا، أليس كذلك؟ اصعدا إلى القمة بعد ساعتين تقريبًا وسنستعرض الأمور معكما. أتعرفان مكان الأنبوب؟».

أومأنا برأسينا، ولمّا غادر جورلاي التفتُّ إلى ليانا أسألها: «ما رأيكِ؟».

تمدّدت على الفراش، وقالت متأملةً السّقف: «لا أدري. لم أكن أقرأ. أتساءل عن سبب تعدُّد المديرين هنا، وفيمَ يريدوننا».

مبتسمًا قلت: «إننا (موهوبان)». الكلمة بين قوسين، نعم، فقد خضعتُ وليانا للاختبارات وسُجّلنا بصفتنا (موهوبين) في الإدراك الفائق للحواس، ومعنا التّرخيص الذي يثبت هذا.

غمغمَت: «آها»، وانقلبَت على جنبها مبتسمةً لي بدورها... لا ابتسامة مصّاصة الدّماء النّصفية إيّاها، بل ابتسامة الفتاة الصّغيرة المثيرة.

قلت: «ڤالكارنجي يريدنا أن نستريح قليلًا. ليست فكرة سيئة على الأرجح».

قفزت ليا من الفراش قائلة: «ليكن، ولكن لا بد من التّخلص من هذين التّوأمين أولًا».

- يمكننا أن نضمّهما.

عادت تبتسم، وضممناهما، وضممنا نفسينا.

ونمنا قليلًا بالفعل، بعد فروغنا.

حين استيقظنا وجدنا أمتعتنا خارج الباب، فبدّلنا بثيابنا ثيابًا نظيفة، ثيابًا تقليدية قديمة اعتمادًا على افتقار ڤالكارنجي الشّهير إلى الخُيلاء، ثم أخذنا الأنبوب إلى قمة البرج.

***

مكتب المدير بالكاد مكتب؛ لا يحتوي على منضدة أو أيّ من البهارج المعتادة، فقط بار وبُسط زرقاء فاخرة ابتلعتنا حتى الكاحل، وستة أو سبعة مقاعد مُوزَّعة، علاوةً على المساحة الواسعة وكثير من ضوء الشّمس، وقد امتدّ شكيا عند أقدامنا وراء الزُّجاج الملون الذي تتكوَّن منه أربعة الجدران ها هنا.

كان ڤالكارنجي وجورلاي في انتظارنا، وتولّى ڤالكارنجي صبّ المشروبات وتقديمها بنفسه. لم أتعرَّف على ذلك الشّراب، وإن وجدته باردًا حرِّيفًا عطريًا وله لذعة حقيقية. رشفت منه بامتنان، فلسببٍ ما شعرت بأنني محتاج إلى ما يُحسّن مزاجي.

مبتسمًا قال ڤالكارنجي إجابةً عن السُّؤال الذي لم يُسأل: «نبيذ إشكيني. له اسم عندهم، غير أني لا أستطيع نطقه بعدُ. لكن أمهِلني وقتًا. إنني هنا منذ شهرين فقط، واللُّغة صعبة».

سألته ليا مندهشةً: «تتعلَّم الإشكينية؟»، وعرفتُ سبب دهشتها، فاللُّغة الإشكينية صعبة على ألسُن البشر، في حين أن أهل الكوكب تعلَّموا لغة الأرضيين بسهولة مذهلة، وهو ما تقبّله معظم النَّاس هنا بسعادة، ونسوا الصُّعوبات التي ينطوي عليها حلُّ طلاسم لغة الشَّعب الفضائي.

أجاب ڤالكارنجي: «إنها تساعدني على استبصار طريقة تفكيرهم»، وأردف مبتسمًا: «هذه هي النَّظرية على الأقل».

قرأته ثانيةً، ولو أنني وجدت الأمر أصعب هذه المرة، فالتَّلامس البدني يجعل العملية أوضح. من جديدٍ بلغني شعور بسيط قريب من السَّطح؛ الفخر هذه المرة،

يمتزج به الاستمتاع، وهو ما عزوته إلى النّبيذ. لا شيء متوارٍ تحت السّطح.

قلت: «أيًا كان نطق اسمه، يُعجبني هذا الشّراب».

أضاف جورلاي: «الإشكين ينتجون تشكيلة كبيرة من الخمور والمأكولات. أجزنا تصدير كثير منها بالفعل، ونعمل على فحص عدد آخر حاليًا. المفترض أن تروج تلك السّوق».

قال ڤالكارنجي: «ستحظيان بفرصة تجربة مزيدٍ من المنتجات المحلية هذا المساء. لقد رتّبت جولة في المدينة، مع محطة أو اثنتين في بلدة الإشكين. حياتنا اللّيلية هنا مثيرة إلى درجةٍ معقولة بالنّسبة إلى مستوطنة بهذا الحجم الصّغير. سأكون دليلكما».

قلت: «لا بأس»، وابتسمت ليا أيضًا. الجولة لفتة تحمل قدرًا غير معتاد من المراعاة، فأكثر العاديّين يُصيبهم الانزعاج في حضور الموهوبين، ولذا يسارعون بجلبنا لننفّذ ما يرغبون في تنفيذه، ثم يصرفوننا بأقصى سرعة ممكنة، وبالتّأكيد لا يزاولون أنشطة اجتماعية معنا.

خفض ڤالكارنجي شرابه ومال إلى الأمام في مقعده قائلًا: «والآن، المشكلة. هل قرأتما عن ملّة الاتّحاد؟».

أجابت ليا: «إنها ديانة إشكينية».

صحّح ڤالكارنجي: «بل الدّيانة الإشكينية الوحيدة. كلهم بلا استثناء يؤمن بها. إنه كوكبٌ بلا ملحدين».

قالت: «لقد قرأنا الوثائق التي أرسلتها عنها، إلى جانب كل شيء آخر».

- وما رأيكما؟

هززت كتفيّ، وقلت: «كئيبة، بدائية، ولكن ليس أكثر من أي ديانة أخرى قرأت عنها. الإشكين ليسوا متقدمين رغم كل شيء. على الأرض القديمة تضمَّن بعض العقائد قرابينَ بشرية».

هزَّ ڤالكارنجي رأسه ونظر نحو جورلاي، الذي قال واضعًا شرابه على البساط: «لا، أنت لا تفهم. إنني أدرس ديانتهم منذ ستة أعوام. إنها لا تشبه أي شيء في التّاريخ، ولا مثيل لها على الأرض القديمة، لا يا سيدي، ولا عند أي جنس آخر قابلناه. والاتّحاد... من الخطأ مقارنته بالقرابين البشرية، خطأ تمامًا. ديانات الأرض القديمة قدّمت ضحية أو اثنتين عنوةً على سبيل القربان لإرضاء آلهتها، قتلَت قلّة قليلة لنيل الرّحمة للملايين، وهو ما لاقى اعتراضًا من القلّة القليلة عادةً. أمّا الإشكين فلا يفعلون ذلك. الجريشكة تأخذ الجميع، ويذهبون إليها بكامل إرادتهم الحرّة. مثل اللّاموس(1) يتّجهون إلى الكهوف لتأكلهم تلك الطُّفيليات أحياء. كل إشكيني يصبح ضميمًا في سنّ الأربعين، وينخرط في الاتّحاد الأخير قبل الخمسين».

حائرًا قلت: «ليكن. أظنني أرى الفرق. ولكن ماذا في هذا؟ أهذه هي المشكلة؟ أتصوّر أن الاتّحاد قاسٍ على الإشكين، لكنه شأنهم. ديانتهم ليست أسوأ من طقوس أكل لحم المثيل التي يمارسها الهرانجانيّون، أليس كذلك؟».

فرغ ڤالكارنجي من شرابه ونهض ذاهبًا إلى البار، وبينما ملأ لنفسه كأسًا أخرى قال بأسلوبٍ شبه عرَضي: «على حد علمي، طقوس أكل لحم المثيل عند الهرانجانيّين لم تستحوذ على أي معتنقين بشر».

بدت الصّدمة على ليا، وشعرتُ بها في داخلي.

اعتدلت في جلستي محملقًا، وقلت: «ماذا؟!».

اتجه ڤالكارنجي إلى مقعده ثانيةً حاملًا كأسه، وقال: «بعض البشر يعتنق ملّة الاتّحاد. عشرات منهم أضفّاء الآن بالفعل. لا أحد وصل إلى الاتّحاد الكامل بعدُ، إلا أنها مسألة وقتٍ لا أكثر»، وجلس ناظرًا إلى جورلاي، فنظرنا إليه بدورنا.

التقط المعاون الأشقر الطّويل النّحيل طرف الخيط قائلًا: «أول المعتنقين ظهر منذ سبعة أعوام تقريبًا، قبل وصولي بنحو عام وبعد اكتشاف شكيا وبناء المستوطنة بعامين ونصف. اسمه ماجلي. كان صاحب قدرات نفسية، وعمل من كثبٍ مع الإشكين. طيلة عامين ظلّ الوحيد، ثم لحق به آخر في عام 08»، والمزيد في العام التّالي، والمعدل يرتفع منذ ذلك الحين. أحدهم كان شخصًا بارزًا، فيل جوستافسن».

حدّقت إليه ليا قائلة: «المدير الكوكبي؟».

قال جورلاي: «هو نفسه. لقد مرّ علينا عدد كبير من المديرين. جوستافسن جاء بعدما لم يعُد زكوود يطيق البقاء. كان عجوزًا خشنًا كبير الحجم، وأحبّه الجميع. في آخر تكليفٍ له قبل شكيا فقد زوجته وابنه، لكن أحدًا لم يكن ليعرف ذلك من سلوكه، فلطالما تصرّف بحميمية ومرح بالغين. أثارت ديانة الإشكين اهتمامه، وبدأ حوارًا معهم، وتكلم مع ماجلي وعددٍ من المعتنقين الآخرين أيضًا، كما ذهب ليرى أحد طفيليات الجريشكة، وهو ما رجّه رجًا لفترة طويلة، غير أنه تجاوز الأمر في النّهاية وعاد إلى أبحاثه. كنت أعمل معه، لكنني لم أخمّن ما

ينتويه إطلاقًا. قبل ما يزيد قليلًا على العام، اعتنق الدّين الإشكيني. إنه ضميمٌ الآن. لم يسبق قَطُّ أن قُبِل أحد بهذه الشرعة. والآن أسمع في بلدة الإشكين كلامًا عن الإيذان له في دخول الاتّحاد الأخير. سيسارعون بإدخاله مباشرةً. فيل عمل مديرًا هنا وقتًا أطول من أي أحد آخر وأحبّه النّاس، وهكذا عندما تحوّل إلى ديانة الإشكين تبعه عدد كبير من أصدقائه. المعدل مرتفع جدًّا الآن».

أضاف ڤالكارنجي: «أقل قليلًا من واحد في المئة، وفي تصاعُد. النّسبة تبدو منخفضة، ولكن تذكّرا ما تعنيه. واحد في المئة من النّاس في مستوطنتي يختارون اعتناق ديانة تتضمّن نوعًا بغيضًا جدًّا من الانتحار».

نقلت ليا بصرها منه إلى جورلاي، ثم عادت تنظر إلى ڤالكارنجي متسائلةً: «ولِمَ لم يُبلَغ عن شيء من هذا؟».

أجابها: «لقد وجبَ الإبلاغ عنه، لكن ستيوَرت خلفَ جوستافسن، وفكرة الفضيحة أرعبته للغاية. لا يوجد قانون يمنع اعتناق البشر ديانات فضائية، وهكذا عرَّف ستيوَرت الأمر باعتباره لا-مشكلة، واكتفى بالإبلاغ الرُّوتيني عن أعداد المعتنقين، إلا أن أحدًا من الأعلى رتبةً لم يُكلف نفسه عناء الرَّبط بين الأمرين وتذكُّر طبيعة الدّيانة التي يعتنقها هؤلاء النّاس كلُّهم».

فرغت من شرابي ووضعته قائلًا لڤالكارنجي: «أكمِل».

تابع: «أمّا أنا فأُعرِّف الموقف باعتباره مشكلةً. لا تهمُّني الأعداد القليلة المتورطة في الأمر، ففكرة سماح البشر للجريشكة بالتهامهم تفزعني. لقد كلَّفت فريقًا من ذوي القدرات الفائقة للحواس بتحرّي المسألة منذ تولّيت الإدارة، لكنهم لم يتوصّلوا إلى شيء. إنني محتاج إلى موهوبين. أريدكما أنتما الاثنين أن

تعرفا سبب اعتناق هؤلاء النّاس ديانة الإشكين، وعندها سأتمكّن من التّعامل مع الموقف».

المشكلة غريبة، غير أن التّكليف يبدو مباشرًا بما فيه الكفاية. قرأت ڤالكارنجي لأستوثق، فوجدت مشاعره هذه المرّة أعقد بعض الشّيء، ولكن ليس كثيرًا. فوق كل شيء الثّقة، فهو متأكد من استطاعتنا تولّي المشكلة، ويشعر بقلقٍ حقيقي، ولكن لا خوف، ولا مجرد شذرة من الخداع. من جديدٍ لم أستطِع التقاط شيء تحت السّطح، فڤالكارنجي يجيد تخبئة اضطرابه الخفي، لو أنه يعاني أي اضطراب.

نظرت نحو ليانا، فرأيتها جالسة بوضع غير مريح في مقعدها، وقد قبضَت أصابعها بشدة على كأس النّبيذ. تقرأ. ثم إنها استرخت ونظرت في اتجاهي وأومأت برأسها.

قلت: «ليكن. أظننا نستطيع أن نفعلها».

ابتسم ڤالكارنجي، وقال: «لم أشكّ في هذا على الإطلاق. كان تساؤلي عن قبولكما من عدمه. ولكن كفى كلامًا عن العمل حاليًا. لقد وعدتكما بليلةٍ في المدينة، وأنا أحاول دائمًا الوفاء بوعودي. سأقابلكما في البهو بالأسفل بعد نصف ساعة».

***

في مسكننا بدّلت وليا بثيابنا أخرى ذات طابع رسمي أكثر، فاخترت سترة زرقاء داكنة مع بنطال أبيض ووشاح شبكي من اللّون نفسه. ليست هذه أرفع

موضة، لكنني أملت أن شكيا متخلّف عدّة أشهر عن أحدث صيحة. أمّا ليا فارتدت فستانًا حريريًا أبيض بالغ الضّيق، مُزيّنًا بخطوط زرقاء رفيعة تترقرق في نقوش زخرفية مثيرة استجابةً لحرارة جسدها، خطوط لا شك في خلاعتها إذ تُبرِز قدّها النّحيف بإصرارٍ لا يتزحزح.

أكملت زيّها بحرملة مطرٍ زرقاء، وقالت وهي تربطها: «ڤالكارنجي طريف».

قلت وأنا أكافح لإغلاق سحّاب السّترة اللّاصق الذي يرفض الانغلاق: «حقًّا؟ هل التقطتِ شيئًا عندما قرأته؟».

أجابت: «لا»، وفرغت من ربط الحرملة وتطلّعت إلى نفسها بإعجاب في المرآة، ثم دارت على عقبيها نحوي لتلتفّ الحرملة كالدّوامة من ورائها، وتابعت: «هذا كل شيء. ما قاله هو ما فكّر فيه. أوه، في الكلام تنويعات على الصّياغة بالطّبع، ولكن لا شيء مهمًا. تركيز عقله كان على ما تناقشنا فيه، وخلف ذلك لم أجد إلا جدارًا مصمتًا»، وابتسمت مضيفةً: «لم أتوصّل إلى أيٍّ من أسراره الظّلامية المكنونة».

طقطقت بلساني وقد قهرت السّحّاب العنيد أخيرًا، وقلت: «حسن، ستنالين فرصة أخرى اللّيلة».

لم يُنوّلني هذا منها إلا تكشيرة إذ ردّت: «انسَ! أنا لا أقرأ النّاس في غير وقت العمل. ليس هذا عدلًا. ثم إنه جهد مضنٍ. ليتني أستطيع التقاط الأفكار بسهولة التقاطك المشاعر».

قلت: «إنه ثمن الموهبة. أنت أكثر موهبةً، ولذا تدفعين ثمنًا أغلى»، ثم نقّبت

في أمتعتنا عن حرملة مطر، غير أني لم أجد شيئًا يتماشى مع ملبسي، فقرّرت ألا أرتدي واحدة. الحرامل موضة قديمة على كل حال. «أنا أيضًا لم أحصل على كثيرٍ من ڤالكارنجي. كان بإمكاني الوصول إلى النّتيجة نفسها بمجرد مراقبة وجهه. مُؤكّد أن له عقلًا منضبطًا للغاية. لكنني سأسامحه، فهو يقدم نبيذًا ممتازًا».

أمّنت على قولي برأسها قائلة: «صحيح! ذلك الشّراب أفادني، خلّصني من الصُّداع الذي استيقظت به».

قلت على سبيل التّخمين: «الارتفاع السّبب»، واتجهنا إلى الباب.

وجدنا البهو مهجورًا، إلا أن ڤالكارنجي لم يتركنا ننتظر طويلًا. هذه المرة قاد عربته الهوائية الخاصة، وهي عربة سوداء مليئة بالانبعاجات، من الجلي أنها معه منذ زمن طويل. ليس جورلاي من النّوع الاجتماعي، لكن ڤالكارنجي جلب معه امرأة رائعة الجمال كستنائية الشّعر اسمها لوري بلاكبرن، تصغره هو نفسه سنًّا، ويبدو من شكلها أنها في منتصف العشرينيات.

كانت الشّمس مائلة إلى المغيب عندما أقلعنا، فبدا الأفق القصي بأكمله كلوحةٍ فاتنة من الأحمر والبرتقالي، وهبّ نسيم فاتر الحرارة من السُّهول. ترك ڤالكارنجي المُبرّدات مطفأةً وفتح نوافذ العربة، وشاهدنا عتمة الشّفق تزحف على المدينة ونحن نتحرك.

لإشعارنا بالألفة، تناولنا العشاء في مطعم أنيق بالدَري الديكور، أمّا الأطعمة نفسها فكزموپوليتانيّة جدًا، من أنحاء مختلفة من المجرة. التّوابل والأعشاب وأسلوب الطّهو؛ كل هذا بالدَري، في حين أن اللُّحوم والخضراوات محلية، وهو

ما صنع توليفة لذيذة. طلب ڤالكارنجي الطّعام لأربعتنا، وإذا بنا نجرب نحو دستة من الأصناف المختلفة، أفضلها عندي طائر إشكيني ضئيل الحجم قليل اللّحم، لكن هذا القليل شهي حقًّا. أتينا أيضًا على ثلاث زجاجات من النّبيذ خلال الوجبة: مزيد من الشّراب الإشكيني الذي جرّبناه بعد الظُّهر، وقنينة من الڤِلتار المُبرَّد من بالدَر، وبرجندي أصلي من الأرض القديمة.

سرعان ما اكتسب الحديث طابعًا ودودًا، فڤالكارنجي حكّاء بالفطرة، وبالمثل يجيد الاستماع.

في النّهاية -بطبيعة الحال- انتقلت المحادثة إلى شكيا والإشكين، وقادتها لوري التي وصلت إلى شكيا منذ ستة أشهر سعيًا للحصول على درجة متقدمة في أنثروپولوجيا الشّعوب الفضائية، وتحاول اكتشاف السّبب الذي جمّد الحضارة الإشكينية في حقبتها البدائية لآلاف السّنين.

أخبرتنا لوري: «إنهم أقدم منا، ويُشيّدون المُدن من قبل أن يستخدم الإنسان الأدوات. كان المُفترَض أن يعثر مرتادو فضاء إشكين على البشر البدائيين مصادفةً لا العكس».

سألتها: «ألم تُوضَع نظريات عن هذا بالفعل؟».

- بلى، ولكن ولا واحدة منها يقبلها الجميع. كولن مثلًا يستشهد بافتقارهم إلى المعادن الثّقيلة، وهو عامل فعلي، ولكن أهو الإجابة الكاملة؟ وڤون هارمن يزعم أن الإشكين لم يتعرّضوا لمنافسة كافية، فلا حيوانات لاحمة كبيرة على الكوكب، وهكذا لا يوجد ما يُولّد العدوانية في الجنس المسيطر. على أنه قُوبِل بكثير من الانتقادات الحادة. شكيا ليس مثاليًا إلى تلك الدّرجة، ولو أنه كذلك لما بلغ

الإشكين مستواهم الحالي قَطُّ. وفضلًا عن ذلك، ما الجريشكة إن لم تكن لواحم؟ إنها تأكلهم، أليس كذلك؟».

سألتها ليا: «وما رأيكِ أنتِ؟».

قالت: «أظنُّ أن للمسألة علاقة بدينهم، لكني لم أصل إلى نتائج كاملة بعد. دينو يساعدني على الكلام مع النَّاس، والإشكين منفتحون بما فيه الكفاية، إلا أن البحث ليس سهلًا»، وبترت كلامها فجأةً ورمقت ليا بجمودٍ مضيفةً: «بالنِّسبة إليَّ على الأقل. أتصور أن الأمر أسهل عليكِ».

سبق أن سمعنا هذا، فكثيرًا ما يحسب العاديُّون أن الموهوبين يتمتَّعون بمزايا غير عادلة، وهذا مفهوم تمامًا، لأنه صحيح. غير أن لوري لم تكن ناقمةً إذ أدلت بتعليقها بنبرة تأمُّلية مشوبة بالحزن بدلًا من نقش كلماتها بالحمض اللَّفظي.

مال ڤالكارنجي نحوها وطوَّقها بذراعه قائلًا: «كفى كلامًا عن العمل. لا يجدر بروب وليا أن يقلقا بشأن الإشكين حتى غد».

نظرت لوري إليه مبتسمةً بتردُّد، وقالت باستهانة: «حسن. إنني أتمادى أحيانًا. آسفة».

قلت لها: «لا بأس. إنه موضوع مثير للاهتمام. امنحينا يومًا وغالبًا سنتحمَّس أيضًا».

أيَّدت ليا كلامي بإيماءة من رأسها، وأضافت أن لوري ستكون أول من يعلم إذا أسفر عملنا عن أي شيء يدعم نظريتها. أمَّا أنا فأصغيت بالكاد. أعلم أنه ليس من التهذيب قراءة العاديِّين حينما نخرج معهم لممارسة الأنشطة الاجتماعية، لكنني

أعجز عن المقاومة في بعض الأحيان. ڤالكارنجي طوّق لوري بذراعه وجذبها نحوه بلطف، وهو ما أثار فضولي.

قرأته سريعًا شاعرًا بالذّنب. وجدته منتشيًا للغاية، ثملًا بعض الشّيء على ما أظن، ويشعر بثقة بالغة ورغبة في الحماية. إنه سيد الموقف. أمّا لوري ففي داخلها كثير من الارتباك والتّشوش؛ حيرة وغضب مكبوت ولمحة مبهمة خابية من الخوف، وحب، حب مضطرب لكنه قوي.

شككت في شعورها به نحوي أو نحو ليا. ڤالكارنجي هو من تحبّ.

***

مددت يدي تحت المائدة أبحث عن يد ليا، ولمّا وجدت ركبتها اعتصرتها برفق، فنظرت إليّ وابتسمت. لم تكن تقرأ، وهذا خير. لقد ضايقني أن لوري تحبّ ڤالكارنجي، ولو أني لم أدرك السّبب، وبالقدر نفسه سرّني أن ليا لم ترَ ضيقي.

أنهينا ما تبقّى من النّبيذ في وقت قصير، وتولّى ڤالكارنجي الحساب كله، ثم إنه نهض معلنًا: «إلى الأمام! ما زال اللّيل في أوله، وعندنا عدد من الزّيارات».

وهكذا قُمنا بعدد من الزّيارات. لا برامج هولوجرامية أو شيء بتلك الرّتابة، مع أن للمدينة نصيبها من دور العرض. الزّيارة الثّالية على القائمة كانت إلى كازينو، فالقمار قانوني على شكيا بالطّبع، ولو لم يكن لأجازه ڤالكارنجي. زوّدنا بالفِيَش وخسرتُ بعضها أمامه، وكذلك لوري، أمّا ليا فمُنِعت من اللّعب لقوة موهبتها الشّديدة. فاز ڤالكارنجي بمبلغ كبير، فهو لاعب مايندسپين رائع، وبارع في الألعاب التّقليدية أيضًا.

ثم ذهبنا إلى بار، حيث مزيد من المشروبات، علاوةً على عروض التّرفيه المحلية التي فاقت جودتها توقعاتي.

خرجنا والظّلام دامس، وافترضت أن الحملة موشكة على نهايتها.

غير أن ڤالكارنجي فاجأنا، فعندما عدنا إلى العربة مدّ يده تحت لوحة التّحكم وأخرج علبةً من حبوب المُفوّقات ووزّعها علينا.

قلت: «مهلًا. أنت الذي تقود العربة، فلِمَ أحتاج إليها؟ لقد وصلت من فوري وبالكاد إلى مستوى الدّماغ الحالي».

- إنني على وشك أخذك إلى حدثٍ ثقافي إشكيني أصيل يا روب، ولا أريدك أن تلقي بتعليقات فجّة أو تتقيّأ على السّكان المحليين. خذ حبّتك.

فأخذت حبّتي، وبدأ إحساس السّكر في رأسي يخبو. كان ڤالكارنجي قد أقلع بالعربة بالفعل.

أسندت ظهري إلى مقعدي وطوّقت ليا بذراعي لتريح رأسها على كتفي، وسألت: «أين سنذهب؟».

من غير أن ينظر خلفه أجابني: «بلدة الإشكين، إلى قاعتهم الكبرى. سيُقام تجمُع اللّيلة، وخطر لي أنكما ستهتمّان بحضوره».

قالت لوري: «إنه بالإشكينية بالطّبع، ولكن بإمكان دينو أن يترجم لكما. أنا أيضًا أعرف قليلًا من اللُّغة، وسأمدُّكما بما يفوته».

لاحت على ليا الحماسة. لقد قرأنا عن التّجمُعات بالطّبع، وإن لم نتوقّع أن

نذهب لحضور أحدها في يومنا الأول على شكيا. التّجمُعات ضرب من الطُقوس الدّينية، نوع من الاعتراف الجماعي للحُجّاج الذين يُوشكون على دخول صفوف الأضمّاء، ولئن عجّت مدينة التّلال بالحُجّاج يوميًا، فالتّجمُعات تُقام أربع أو خمس مرات فقط في السّنة، حينما ترتفع أعداد الموشكين على الانضمام بما فيه الكفاية.

انطلقت العربة الهوائية بلا صوت تقريبًا عبر المستوطنة السّاطعة الأنوار، لنمرَّ بنوافير ضخمة تتراقص بمختلف الألوان وتنبثق منها قناطر زينة جميلة تنساب كأنها نار سائلة. رأينا بعض العربات الأخرى في الهواء، وهنا وهناك طِرنا من فوق مارّة يتجوّلون في منتزهات المدينة الواسعة، لكن أكثر النّاس بقوا في الدّاخل، ومن عدّة من المنازل التي مررنا بها تدفّقت الأضواء والموسيقى.

وعلى حين غرّة أخذت شخصية المدينة تتبدّل، فبدأت الأرض المستوية تتكتّل وتتموّج، وارتفعت التّلال من أمامنا ثم من خلفنا، واختفت الأضواء. تحتنا حلّت محلَّ المنتزهات طُرق غير مضاءة من الحجارة المسحوقة والتُراب، واستسلمت قباب الزُجاج والمعدن العصرية، المبنيةِ محاكاةً للمعمار الإشكيني، لأخواتها القرميد الأقدم. وجدنا مدينة الإشكين أهدأ من نظيرتها البشرية، ومعظم المنازل صامتًا مظلمًا.

ثم ظهرت أمامنا ربوة أكبر من غيرها، تكاد تكون تلًا، فيها باب مُقنطَر كبير وسلسلة من النّوافذ الشّبيهة بالشُقوق، ومن هذه الرّبوة تسرّب الضّوء والضّوضاء، ورأينا عددًا من الإشكين خارجها.

أدركت فجأةً أن رغم وجودي على شكيا قرابة اليوم فهذه هي المرة الأولى

التي أرى فيها الإشكين أنفسهم، ومع أني لم أستطِع رؤيتهم بوضوح من العربة الهوائية ليلًا، فقد رأيتهم. إنهم أصغر حجمًا من البشر، أطولهم قامةً يناهز الأقدام الخمسة، ولهم أعين كبيرة وأذرع طويلة، لكني لم أستطِع تبيُّن أكثر من هذا من علٍ.

حطَّ ڤالكارنجي بالعربة بمحاذاة القاعة الكبرى وترجَّلنا. كان الإشكين يدخلون شيئًا فشيئًا من الباب المُقنطَر آتين من اتجاهات عدَّة، غير أن أكثرهم بالدَّاخل بالفعل. انضممنا إلى تيَّارهم ولم ينظر إلينا أحد مرَّتين، باستثناء واحد فقط حيَّا ڤالكارنجي بصوت رفيع حاد ودعاه بدينو. حتى هنا له أصدقاء.

يتكوَّن داخل الرَّبوة من حجرة واحدة هائلة المساحة، تحوي منصَّة ضخمة بدائية الصُّنع في المنتصف، وعددًا غفيرًا من الإشكين المُتحلِّقين حولها. مصدر الضُّوء الوحيد في المكان مشاعل مدسوسة في تجاويف في الجدران، وأخرى مُثبَّتة فوق أعمدة عالية تحيط بالمنصَّة. كان أحدهم يتكلم وقد التفتت إليه تلك الأعين الكبيرة الجاحظة جميعًا، وليس في القاعة كلها بشر إلا أربعتنا.

المتحدث، الذي يُحدِّده ضوء المشاعل المُتألِّق، إشكيني بدين في منتصف العمر، يحرك يديه ببطء كما لو أنه يُنوِّم الحاضرين مغناطيسيًّا وهو يتكلم، وكلامه عبارة عن سلسلة من الصَّفير والأزيز والنَّخير، فلم أحاول أن أصيخ السَّمع. موقعه أبعد من أن أستطيع قراءته، فاكتفيت بتفحُّص مظهره هو وسواه من الإشكين القريبين مني. وجدت صعوبة في تمييز الذُّكور من الإناث. جميعهم عديمو الشَّعر حسبما رأيت، ولهم بشرة برتقالية تبدو ناعمة نوعًا وتُغضِّنها آلاف التَّجاعيد الضَّئيلة، ويرتدون قمصانًا طويلة بسيطة من قماش خشن متعدد الألوان.

مال ڤالكارنجي نحوي، ومن باب الحرص على خفض صوته قال هامسًا: «المتكلم صانع مراوح، يحكي للجمهور عن المدى الذي بلغه وبعض المصاعب في حياته».

تلفَّتُ حولي. همسة ڤالكارنجي الصّوت الوحيد بين الحاضرين، أمّا كل أحد آخر فعيناه مُثبّتتان على المنصّة، وبالكاد يتنفّس.

أخبرني ڤالكارنجي: «يقول إن له أربعة إخوة. اثنان منهم ذهبا إلى الاتّحاد الأخير، والثّالث بين الأضبّاء. الأخير أصغر منه، ويملك المزرعة الآن»، وقطّب وجهه وتابع بصوت أعلى: «المتكلم لن يرى مزرعته ثانيةً أبدًا، لكنه سعيد».

سألته ليا مبتسمةً باستخفاف: «المحاصيل رديئة؟». كانت مصغية إلى الهمسة نفسها، وقد حدجتْها بنظرة صارمة.

استمرّ الإشكيني في كلامه، وترجَم ڤالكارنجي في أعقابه متلعثمًا: «الآن يحكي عن جرائمه، عن كل الأشياء التي فعلها ويشعر بالخزي منها، أحلك أسرار روحه. يقول إنه تكلم بسلاطة أحيانًا، وإنه مغرور، وفي مرّة ضرب أخاه الصّغير. والآن يتحدّث عن زوجته والنّساء الأخريات اللاتي عرفهن. لقد خانها مرّات عديدة مع أخريات. في صباه عاشر الحيوانات لخوفه من الإناث، وفي الأعوام الأخيرة لم يعُد قادرًا على الممارسة، ولذا بدأ أخوه يجامع زوجته عوضًا عنه».

تواصل الكلام وتواصل بأدق التّفاصيل، تفاصيل مدهشة ومخيفة في آنٍ واحد. لا علاقة حميمية لم يحكِ عنها، لا سرّ لم يفصح عنه، ووقفت منصتًا إلى همس ڤالكارنجي، مصدومًا في البداية، قبل أن ينتابني الملل أخيرًا ممّا في الحكاية

من دنس. بدأت أتململ، وتساءلت تساؤلًا عابرًا هل أعرف أي إنسان مثلما أعرف هذا الإشكيني السّمين، ثم تساءلت هل تعرف ليانا بموهبتها أي أحد مثل هذه المعرفة. كأن المتحدث يريدنا جميعًا أن نعيش حياته بأكملها هنا والآن.

بدا كأنما دام كلامه ساعات، لكنه بدأ يختتمه أخيرًا، وترجم ڤالكارنجي همسًا: «يتكلم الآن عن الاتّحاد. سيصير ضميمًا، وهو ما يُشعِره بالابتهاج، فقد تاق إلى ذلك طويلًا. بؤسه بلغ نهايته، ووحدته ستزول، وقريبًا سيجوب شوارع المدينة المُقدّسة ويُعبّر عن بهجته بجلجلة جرسَيه. ثم سيحين الاتّحاد الأخير خلال السّنوات المقبلة، ويصبح مع إخوته في الحياة الأخرى».

- لا يا دينو.

هذه المرة أتت الهمسة من لوري. «كُفّ عن تغليف أقواله بالتّعبيرات البشرية. ما يقوله إنه سيصبح هو إخوته، والعبارة تُلمّح أيضًا إلى أنهم سيصبحونه».

Telegram:@mbooks90

ابتسم ڤالكارنجي قائلًا: «حسن يا لوري، لو أن هذا رأيكِ...».

فجأةً نزل المزارع البدين من فوق المنصّة، وارتفع حفيف من بين المحتشدين، وأخذ مكانه واحد آخر أقصر قامة كثيرًا، يمتلئ وجهه بالتّجاعيد، وبدلًا من إحدى عينيه ثمّة فجوة كبيرة. بدأ الإشكيني يتكلم، بتردُّد أولًا ثم بمزيد من الطّلاقة.

- هذا بنّاء، عمل على كثير من القباب، ويقطن في المدينة المُقدّسة. عينه فقدها قبل أعوامٍ طويلة عندما سقط من فوق قبّة وانغرست فيها عصا مُدبّبة. كان الألم ممضًا، لكنه عاد إلى العمل خلال عام. لم يتوسّل دخول الاتّحاد قبل

الأوان، بل تحلّى بقدر عظيم من الشّجاعة، ويشعر بالفخر بنفسه لشجاعته. إن له زوجة، لكنهما لم يُنجِبا ذُرية، وهو ما يحزنه. لا يستطيع الكلام مع زوجته بسهولة. إنهما منفصلان حتى وهما معًا، وزوجته تبكي ليلًا، وهذا أيضًا يحزنه، لكنه لم يجرحها قَطُّ، و...».

مرَّةً أخرى استمرَّ الكلام لساعات، ومرَّةً أخرى ثار سأمي، لكنني تغلَّبت عليه، فالأمر في غاية الأهمية. تركت نفسي أضيع في سرد ڤالكارنجي وفي قصة الإشكيني الأعور، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجدتني مرتبطًا بالحكاية ارتباط الفضائيين المحيطين بي. داخل القبة حارٌّ مكتوم وبلا هواء تقريبًا، وقد بدأ السّناج يُلطِّخ سترتي والعرق يُبلِّلها، بعضه عرق المخلوقات المتزاحمة حولي، إلا أنني لاحظت بالكاد.

ختم المتحدث الثّاني كلامه كالأول، بثناءٍ عظيم على فرحة الانضمام وحلول الاتّحاد الأخير. قُرب النّهاية لم أحتَج تقريبًا إلى ترجمة ڤالكارنجي، إذ صار بإمكاني سماع السّعادة في صوت الإشكيني ورؤيتها في جسده الرّاجف.

أو لعلّي كنت أقرأ لا شعوريًا. لكنني لا أستطيع القراءة من هذه المسافة... ما لم يكن الهدف يُطلِق العنان لعاطفةٍ مشبوبة حقًّا.

صعد شخص ثالث فوق المنصّة وتكلم بصوت أعلى من الآخَرين، وجاراه ڤالكارنجي قائلًا: «هذه امرأة، أنجبت ثمانية أولاد لزوجها، ولها أربع أخوات وثلاثة إخوة، وقضت حياتها كلها في الفِلاحة، و...».

وفجأةً بدا أن حديثها بلغ ذروته، وأنهت فقرة طويلة بكثير من التّصفير العالي الحاد، ثم لاذت بالصّمت.

وكشخصٍ واحد بدأ الحاضرون يردُّون بدورهم بالصَّفير، وملأت القاعة الكبرى موسيقى غريبة رنَّانة، وشرع الإشكين المحيطون بنا يتمايلون ويُصفِّرون، في حين تطلَّعت المرأة إلى المشهد بظهر محني وقد لاح عليها الانكسار.

بدأ ڤالكارنجي يترجم، لكنه ارتبك عند نقطة ما، وقبل أن يعود أدراجه قاطعته لوري هامسةً: «لقد حكت لهم عن مأساة عظيمة، ويُصفِّرون ليُبدوا أساهم وتوحُّدهم مع ألمها».

مُتولِّيًا التَّرجمة مجددًا، قال ڤالكارنجي: «التَّعاطف، نعم. في صغرها مرض أخوها وبدا أنه يُحتضَر، فطلب منها والداها أن تأخذه إلى التِّلال المُقدَّسة لأنهما لا يستطيعان ترك إخوتهما الأصغر، لكن إحدى عجلات عربتها تحطَّمت من جرَّاء قيادتها المتهورة، ومات أخوها في السُّهول، قضى نحبه من غير اتِّحاد، وهو ما تلوم نفسها عليه».

عاودت الإشكينية الكلام، وبدأت لوري تترجم مائلةً نحونا ومتحدثةً بهمسٍ ناعم: «تقول ثانيةً إن أخاها مات، إنها أخطأت في حقِّه وحرمته الاتِّحاد، والآن هو مفصول ووحيد ورحل دونما... دونما...».

قال ڤالكارنجي: «حياة أخرى، دونما حياة أخرى».

ردَّت: «لست واثقة تمامًا بصحة هذا. ذلك المفهوم...».

أشار لها بالصَّمت قائلًا: «أنصِتي»، واستأنف التَّرجمة.

واستمعنا لقصة الإشكينية محكيَّةً بهمس ڤالكارنجي المزداد بحَّةً. تكلمت المرأة وقتًا أطول من الاثنين الآخرَين، ولشد ما انطوت عليه قصتها من كآبةٍ بين

الثّلاثة. لمّا فرغَت حلّ محلّها إشكيني آخر، لكن ڤالكارنجي وضع يده على كتفي وأشار نحو المخرج.

لطمنا هواء اللّيل البارد كالماء المُثلّج، وأدركت فجأةً أن العرق يُغرِقني.

سار ڤالكارنجي مسرعًا صوب العربة، ومن ورائنا استمرّ الكلام من غير أن يُبدي الإشكين علامة على التّعب.

فيما ركبنا العربة أخبرتنا لوري: «التّجمعات تدوم أيامًا، وأحيانًا عدّة أسابيع، ويتناوب الإشكين على الإصغاء إن جاز التّعبير... إنهم يبذلون قصارى جهدهم لسماع كل كلمة، غير أن الإرهاق يتمكّن منهم عاجلًا أو آجلًا، فيخلدون إلى راحةٍ وجيزة ثم يرجعون ليسمعوا المزيد. شرفٌ عظيم أن يبقى الواحد منهم طوال تجمُّع كامل بلا نوم».

قال ڤالكارنجي وهو يُقلِع بنا: «سأجرب ذلك يومًا ما. لم يسبق أن حضرت أكثر من بضع ساعات، ولكن أظنُّني قادرًا على فعلها إذا عزّزت نفسي بالعقاقير. سيقوى التّفاهم بين البشر والإشكين إذا شاركنا بمزيدٍ من المثاليّة في شعائرهم».

علّقتُ: «أوه. ربما كان هذا رأي جوستافسن أيضًا».

أطلق ضحكة خفيفة، وقال: «نعم، لكني لا أنوي المشاركة إلى تلك الدّرجة!».

كانت رحلة العودة صمتًا مُتعَبًا. لم أعُد قادرًا على متابعة الوقت، لكن جسدي أصرّ أن الفجر على وشك البزوغ، فيما بدت ليا المُتكوِّرة على نفسها تحت ذراعي خاوية مُستنزَفة ونصف مستيقظة لا أكثر، وهو ما شعرت به أيضًا.

نزلنا من العربة أمام البرج وركبنا الأنابيب إلى أعلى. صرت عاجزًا عن مجرد

التّفكير، وبسرعة شديدة أتى النّوم.

ليلتها حلمت، وكان حلمًا حلوًا على ما أظن، لكنه خبا مع طلوع النّهار ليتركني شاعرًا بالخواء والخديعة. بعد استيقاظي تمدّدت في مكاني محتضنًا ليا بذراعي ورامقًا السّقف، أحاول تذكُّر ما حلمت به، لكنني لم أستطِع.

وبدلًا من ذلك وجدت نفسي أفكر في التّجمع وأستعيده في مُخيّلتي، وفي النّهاية حللت ذراعي من حول ليا ونزلت من فوق السّرير. كنا قد أعتمنا الزُّجاج، فظلّت الغرفة في ظلام دامس، لكنني عثرت على لوحة التّحكم بسهولة وتركت نزرًا يسيرًا من ضوء أواخر الصّباح يدخل.

همهمت ليا باعتراض ناعس وانقلبت على جانبها، وإن لم تحاول القيام، فتركتها بمفردها في غرفة النّوم وخرجت إلى مكتبتنا لأبحث عن كتابٍ عن الإشكين، شيء يحوي تفاصيل أكثر ممّا في الوثائق التي أُرسِلت إلينا. لم يحالفني الحظ، فالغرض من المكتبة التّرفيه لا البحث.

وجدت شاشة اتصال وطلبت مكتب ڤالكارنجي، ليردّ عليّ جورلاي: «مرحبًا. دينو خمّن أنك ستتصل. إنه غير موجود الآن، خرج ليُحكّم في اتفاق تجاري. إلامَ تحتاج؟».

أجبته بصوت لم يزَل فيه قليل من النّعاس: «كُتب، شيء ما عن الإشكين».

- لا يمكنني مساعدتك في ذلك. لا توجد كُتب عن الموضوع حقًّا. كثير من الأوراق البحثية والدّراسات والأفرودات، ولكن لا كُتب كاملة. سأكتب واحدًا بنفسي، لكنني لم أجد الفرصة بعدُ. أظن أن دينو ارتأى أن أكون مصدركما.

- أوه.

- ألديك أي أسئلة؟

بحثت عن سؤال ولم أجد، فهززت كتفيّ قائلًا: «ليس بالضّبط. أردت خلفية عامة فقط، ربما معلومات أكثر عن التّجمعات».

- يمكنني أن أتكلم معكما عن هذا لاحقًا. دينو حزر أنكما ستريدان بدء العمل اليوم. بإمكاننا جلب النّاس إلى البرج إذا أردتما، أو يمكنكما الخروج إليهم.

أسرعت أقول: «سنخرج». جلْب موضوعات البحث لإجراء المقابلات يفسد كل شيء؛ النّاس يتوترون، ومن ثمّ تتوارى أية مشاعر قد أرغب في قراءتها، كما أنهم يفكرون في أشياء مختلفة، وهو ما يُصعّب الأمر على ليانا.

قال جورلاي: «ليكن. دينو وضع عربة هوائية تحت تصرُّفكما. استلِماها في البهو. سيعطونكما مفاتيح أيضًا لتستطيعا الصُعود إلى المكتب هنا مباشرةً، فلا داعي للمرور بالسّكرتارية وما إلى ذلك».

قلت: «شكرًا. نتكلم لاحقًا»، وأطفأت الشّاشة وعدت إلى غرفة النّوم، حيث وجدت ليا جالسة والأغطية حول خصرها. جلست إلى جوارها وقبّلتها، ولمّا ابتسمَت من غير أن تردّ القبلة سألتها: «ما الخطب؟».

أجابت: «صداع. حسبت أن من شأن المُفوّقات أن تُخلّص المرء من الخُمرة».

قلت: «هذه هي النّظرية. حبّتي أحدثت مفعولًا ممتازًا»، وذهبت إلى خزانة الملابس لأبحث عن شيء أرتديه متابعًا: «المُفترَض أن نجد أقراصًا للصُداع في مكانٍ ما هنا. أنا واثق بأن دينو لم ينسَ شيئًا بهذا الوضوح».

أصدرت صوتًا ينمُّ عن الاستياء، وقالت: «نعم. ألقِ إليّ بثياب».

تناولت أحد أرديتها المنزلية التي تغطي البدن كله ورميته لها عبر الغرفة، ونهضَت ليا ووضعَته فيما ارتديث ثيابي، ودخلَت الحمّام.

ثم إنها أعلنت: «هذا أفضل. أنت محق، لم ينسَ الأدوية».

- إنه من النّوع الدّقيق.

قالت مبتسمة: «أظن هذا. على أن لوري تجيد اللُّغة أكثر. لقد قرأتها. دينو وقع في بعض الأخطاء في ترجمته البارحة».

خمّنت شيئًا من هذا القبيل. ليس هذا ذمًّا في ڤالكارنجي، فهو يعمل -حسبما قيل- على عائق مدّته أربعة أشهر.

أومأت برأسي، وسألتها: «هل قرأتِ شيئًا آخر؟».

أجابت: «لا. حاولت الوصول إلى المتحدثين، لكنني وجدتُ المسافة أبعد من اللّازم»، وتقدّمت إليّ وأمسكت يدي سائلة: «ماذا سنفعل اليوم؟».

- بلدة الإشكين. لنحاول العثور على بعض هؤلاء الأصمّاء. لم ألحظ أيّهم في التّجمع.

- لا، تلك التّجمعات تقتصر على الموشكين على دخول صفوف الأصمّاء.

- هكذا سمعت. هيا بنا.

وخرجنا. توقّفنا في المستوى الرّابع لنتناول فطورًا متأخرًا في كافتيريا البرج،

ثم أشار لنا رجل في البهو إلى عربتنا الهوائية، عربة رياضية خضراء تسع أربعة، من نوع شائع للغاية لا يلفت الأنظار.

لم أتوغّل بالعربة في مدينة الإشكين، مفكرًا أننا سنلمُّ أكثر بالإحساس بالمكان إذا تحركنا سيرًا على الأقدام، وهكذا هبطت بعد سلسلة التّلال الأولى، ومشينا.

***

مدينة البشر بدت شبه خالية، أمّا بلدة الإشكين فنابضة بالحياة. شوارع الصّخر المسحوق تعجُّ بالفضائيين المسرعين جيئةً وذهابًا، المنشغلين بحمل قوالب القرميد وسلال الفواكه والملابس، والأطفال في كل مكان، أكثرهم عُراة، كُرات منتفخة من الطّاقة البرتقالية تجري حولنا في دوائر وتصفر وتنخُر وتبتسم ابتساماتٍ عريضة، وبين حينٍ وآخر تشدُّنا من ثيابنا. للأطفال شكل مختلف عن البالغين؛ على سبيل المثال، فوق رؤوسهم رُقع قليلة من الشَّعر المحمر، ولا تزال بشرتهم ملساء بلا تجاعيد. هُم الوحيدون الذين أعارونا اهتمامًا، في حين مضى الكبار في حال سبيلهم ومنحونا ابتساماتٍ ودودًا عابرة. من الواضح أن وجود البشر في طُرقات بلدة الإشكين ليس منظرًا خارقًا للعادة.

معظم الحركة على الأقدام، لكن العربات الخشبية الصّغيرة منتشرة أيضًا، تجرُّها حيوانات إشكينية شبيهة بكلابٍ خضراء كبيرة تبدو كأنها على وشك الثّقيؤ، وقد رُبِط اثنان منها بكل عربةٍ ليسحباها مُصدرَين أنّات متلاحقة. هكذا -بطبيعة الحال- أطلق البشر على حيوان الجرِّ هذا اسم «الأنّان». وإضافةً إلى الأنين، تتبرَّز الأنّانات باستمرار لتمتزج رائحة غائطها بروائح الأطعمة التي يتجوّل بها الباعة في سلال، وروائح الإشكين أنفسهم، فيضفي هذا المزيج على

المدينة رائحة حادة نفّاذة.

ولا يخلو المكان من الضّوضاء أيضًا، ضجيج متواصل يختلط فيه صفير الأطفال بكلام الإشكين الصّاخب المليء بالنّخير والنّشيج والصّرير، وأنين الأتّانات وقعقعة العربات على الصُّخور. في خضم كل هذا مشيت مع ليا بيدين متعانقتين، نشاهد ونصغي ونشمُّ... ونقرأ.

دخلت بلدة الإشكين منفتحًا عن آخري، تاركًا كل ما فيها يغمرني، لا أركّز على شيء بعينه، ولكن أستقبل كل شيء. كنت في مركز فقّاعة صغيرة من المشاعر، تندفع نحوي العواطف اندفاعًا مع دنوّ الإشكين، ثم تنحسر مع ابتعادهم، وتظل تدور حولي وتدور منبعثةً من الأطفال الرّاقصين. في بحرٍ من الانطباعات سبحت، وأجفلني هذا؛ أجفلني لأني وجدته مألوفًا للغاية. سبقَ لي أن قرأت كائناتٍ فضائية، وأحيانًا وجدتُ الأمر صعبًا وأحيانًا سهلًا، لكنه لم يكن قَطُّ سارًّا. للهرانجانيّين عقول فاسدة تتفشّى فيها عفونة الكراهية والحقد، ودائمًا أخرج منها شاعرًا بأني مُلوَّث. والفيندي مشاعرهم باهتة جدًا، حتى إنني أستطيع قراءتها بالكاد. والداموش... مختلفون، أقرؤهم بقوّة وإن عجزت عن إيجاد أسماء للمشاعر التي أقرؤها.

وأمّا الإشكين... فكأنني أمشي في شارعٍ على كوكبنا بالدَر. لا، مهلًا، بل في إحدى المستعمرات المفقودة، في حقبةٍ ارتدّت فيها مستوطنة بشرية إلى الهمجية ونسيت أصولها. هناك تجيش المشاعر الإنسانية، مشاعر أوليّة قوية حقيقية، ولو أنها أقل تعقيدًا من مشاعر البشر على الأرض القديمة أو بالدَر. هكذا الإشكين؛ بدائيون ربما، لكنهم مفهومون للغاية. فيهم قرأت الفرحة والأسى، والحسد والغضب، والطّرافة والمرارة، واللّهفة والألم، المزيج المُسكِر نفسه الذي

يبتلعني في كل مكانٍ حينما أفتح له نفسي.

ليا أيضًا كانت تقرأ. أحسست بيدها تتيبّس في يدي، وبعد قليلٍ لانت من جديد، والتفتُّ إليها لترى السُّؤال في عينيّ.

قالت: «إنهم ناس. إنهم مثلنا».

أومأت برأسي، وقلت: «تطوُّر متوازٍ ربما. قد يكون شكيا أرضًا أقدم، مع بعض الاختلافات الطّفيفة. لكنكِ على حق. إنهم أكثر إنسانية من أي جنسٍ آخر لاقيناه في الفضاء»، ثم فكرت في هذا لحظة قبل أن أردف: «هل يُجيب هذا عن سؤال دينو؟ لو أنهم مثلنا فمن المنطقي أن يترتَّب على هذا كون ديانتهم أشد جاذبية من واحدةٍ أخرى بالغة الغرابة؟».

ردَّت ليا: «لا يا روب، لا أظن. على العكس تمامًا. لو أنهم مثلنا فليس منطقيًا أن يذهبوا ليموتوا بكامل إرادتهم الحرَّة. أترى الفرق؟».

لها حقٌّ طبعًا، فليس في المشاعر التي قرأتها ما يشي برغبةٍ في الانتحار، أو ما ينمُّ عن عدم الاتزان، أو أي شيء غير طبيعي.

ومع ذلك يذهب كل إشكيني إلى الاتّحاد الأخير في النّهاية.

قلت: «ينبغي أن نُركّز على فردٍ واحد. خليط الأفكار هذا لن يقودنا إلى شيء»، ونظرت حولي لأجد عيّنة، وفي تلك اللّحظة سمعت رنين الأجراس.

***

صدرَ الصّوت من مكان ما إلى اليسار، شبه ضائع في صخب المدينة اللّطيف،

فجذبت ليا من يدها وجرينا في الشّارع لنعثر عليهم، وانعطفنا يسارًا عند أول فتحة في صفّ القباب المنتظم.

لم تزَل الأجراس أمامنا، فواصلنا الجري مخترقَين ما لا بد أنه فناء دار أحد الأهالي، ثم عبرنا من فوق سياج شجيراتٍ واطئ زاخر بأوراق الشّوك الحلو المنتصبة، وبعده وجدنا فناءً آخر وحفرة روث ومزيدًا من القباب، وأخيرًا شارعًا، وهناك عثرنا على قارعي الأجراس.

كانوا أربعة، جميعهم أضمّاء، يرتدون عباءات طويلة من قماش أحمر زاهٍ ويجرجرون ذيولها وراءهم في التّراب، وفي يدَي كل منهم زوجان من أجراس برُنزية ضخمة ما برحوا يدقُّونها، فتتأرجح أذرعهم الطّويلة جيئة وذهابًا، وتملأ الأنغام الحادة الرنّانة الشّارع. أربعتهم شيوخ (وفقًا لمقياس الشّيخوخة عند الإشكين)، بلا شعرٍ على الرُّؤوس، وفي جلودهم ملايين التّجاعيد الضّئيلة، لكن ابتساماتهم في غاية الاتساع، يبادلهم إيّاها كل من يمرُّ من الإشكين الأصغر سنًّا.

والأربعة تمتطي رؤوسَهم الجريشكة.

توقّعت أن أجد المنظر بشعًا، إلا أنني لم أجده كذلك، وإن أشعرني بتقزُّز طفيف لمجرد إدراكي ما يعنيه. هذه الطُّفيليات عبارة عن كُتل لامعة من مادة قرمزية لزجة، تتراوح أحجامها من بثرةٍ نابضة على مؤخرة جمجمة أحد الإشكين الأربعة، إلى غطاءٍ كبير من الأحمر المتقاطر يكسو رأس أصغرهم حجمًا وكتفيه كقلنسوةٍ حيّة. كنت أعلم سلفًا أن الجريشكة تعيش على مقاسمة الإشكين العناصر الغذائية في مجرى الدّم.

وأيضًا باستنزاف الطُّفيل مضيفه ببطء... بمنتهى منتهى البطء.

توقّفنا على بعد خطوات قليلة منهم لنشاهدهم يقرعون أجراسهم، وراقبَتهم ليا بوجهٍ رصين، وأظن أن وجهي بدا كذلك أيضًا، وقد ابتسم الآخرون كافّةً، وصدحت الأجراس بأغانٍ فرِحة.

اعتصرتْ يد ليانا بقوّة هامسًا: «اقرئي».

وقرأنا.

أمّا أنا فقرأت الأجراس. ليس صوتها، لا لا، بل الإحساس بالأجراس، الشُّعور بها، بهذه البهجة الوضّاءة المجلجلة، بالضجة المُفعَمة بالتّهليل والصّياح والرّنين، أغنيّة الأضمّاء بكل ما تحمله من تآزُر وتكافُل. قرأت ما يشعر به الأضمّاء وهُم يدقّون أجراسهم؛ غِبطتهم وترقّبهم، وانتشاءهم بإعلام الآخرين برضاهم الصّاخب، وقرأت حبًا ينبعث منهم في أمواجٍ حارّة عارمة، حبًا تملُّكيًا حاميًا كالذي يربط رجلًا وامرأةً، لا العاطفة الضّعيفة المائعة التي يشعر بها إنسان «يحبّ» إخوانه في الإنسانية. هذا الحبّ حقيقي وقّاد، حبٌّ شعرت به يحرقني إذ غمرني واكتنفني. إنهم يحبُّون أنفسهم، ويحبُّون الإشكين جميعًا، ويحبُّون الجريشكة، ويحبُّون بعضهم بعضًا... ويحبُّوننا... يحبُّونني بحرارة حبّ ليا لي وضراوته. ومع الحبّ قرأت الانتماء والمشاركة. أربعتهم مستقلُّون، كل منهم مُميَّز عن الآخر، لكنهم يفكرون كأنهم شخص واحد تقريبًا، وينتمون إلى الجريشكة، وكلهم معًا ومترابطون رغم أن كلًّا منهم لا يزال نفسه، ولا أحد منهم يستطيع قراءة الآخرين مثلما أقرؤهم.

وليانا؟ سحبت نفسي منهم وكففت عن القراءة ناظرًا إلى ليا، لأجدها ممتقعة الوجه ولكن مبتسمة، وبصوتٍ بالغ الرّقّة والهدوء والعجب قالت: «ما أجملهم!».

غارقًا في الحبّ، ظللت أتذكر كم أحبُها، وكم هي جزء مني وأنا منها.

سألتها وصوتي يقاوم جلبة الأجراس المتواصلة: «ماذا... ماذا قرأتِ؟».

هزّت رأسها كأنما تُصفّيه، وقالت: «إنهم يحبُّوننا. مُؤكّد أنك تعرف هذا، ولكن، أوه، لقد شعرت به. إنهم يحبُّوننا حقًّا، ويا له من حبّ عميق! تحت هذا الحبّ مزيدٌ من الحبّ، وتحته مزيد، وهكذا دواليك بلا نهاية. عقولهم عميقة للغاية ومنفتحة للغاية. لا أحسب أني قرأت بشريًا بهذا العمق من قبل. كل شيء على السّطح مباشرةً، موجود هناك، حيواتهم أجمعها وأحلامهم ومشاعرهم وذكرياتهم و... أوه! كل هذا استوعبته والتقطته بقراءة واحدة، بنظرة. مع البشر، مع الإنسان، يشقُّ عليّ عملٌ كهذا جدًا. يجب أن أنقّب وأصارع، ومع ذلك لا أستطيع التّوغل كثيرًا. أنت تعلم يا روب، أنت تعلم. آهِ يا روب!». قالتها وأتتني مُلصقةً نفسها بي، واحتويتها بين ذراعيّ. لا بد أن سيل العاطفة الذي غمرني عادلَته عندها موجة عاتية، فموهبتها أشمل من موهبتي وأعمق، والآن رجّها طوفان المشاعر هذا رجًا. قرأتها إذ تمسّكت بي، فوجدت حبًا، حبًا جارفًا وعجبًا وسعادةً، لكنني وجدت خوفًا أيضًا، خوفًا متوتّرًا يدور كالدوّامة في خضم كل هذا.

فجأة انقطع الرّنين من حولنا، كفّت الأجراس واحدًا تلو آخر عن التّأرجح، ووقف أربعة الأضمّاء صامتين لحظة وجيزة.

ذهب إليهم أحد الإشكين الآخرين الواقفين على مقربة بسلّة ضخمة مُغطّاة بالقماش، فأزاح أصغرهم حجمًا الغطاء لينتشر عبق لفائف اللّحم السّاخنة في الشّارع. أخذ كل ضميمِ عدة لفائف من السلّة، وسرعان ما بدؤوا يلوكونها بسعادةٍ فيما منحهم صاحب الطّعام ابتسامة عريضة. ثم هُرِعت فتاة صغيرة عارية من

الإشكين تقدم لهم دورقًا من الماء تناقلوه بلا تعليق.

سألت ليا: «ماذا يحدث؟»، وقبل أن تجيبني تذكَّرتُ شيئًا من الوثائق التي أرسلها ڤالكارنجي. الأضمَّاء لا يعملون. الإشكين يعيشون ويكدحون أربعين عامًا أرضيًا، لكنهم لا يعرفون منذ الانضمام الأول وحتى الاتّحاد الأخير إلا الأفراح والموسيقى، فيجوبون الشَّوارع ويدقُّون أجراسهم ويتكلمون ويغنُّون، ويعطيهم الإشكين الآخرون الطَّعام والشَّراب. إطعام الأضمَّاء شرف، وهذا الإشكيني الذي أهداهم لفائف اللَّحم شعَّ فخرًا وسرورًا.

همستُ: «ليا، أيمكنكِ قراءتهم الآن؟».

أومأت برأسها الملتصق بصدري، وسحبت نفسها لتُحدِّق إلى الأضمَّاء وقد قست عيناها، ثم لانتا من جديد وعادت تنظر إليَّ قائلة: «الأمر مختلف الآن».

- كيف؟

ضيَّقت عينيها حائرةً، وقالت: «لا أدري. ما زالوا يحبُّوننا وما إلى ذلك، لكن أفكارهم الآن... أكثر إنسانيةً نوعًا. توجد مستويات مختلفة، والتَّنقيب ليس سهلًا، علاوةً على الأشياء الخفية، أشياء يخفونها حتى عن أنفسهم. لم يعُد كل شيء مفتوحًا كما كان. الآن يفكرون في الطَّعام ولذَّة طعمه، وهذه الأفكار واضحة للغاية حتى إن بإمكاني تذوُّق اللَّفائف بنفسي، لكن الأمر مختلف».

قلت وقد أتاني وحي: «كم عقلًا هنالك؟».

أجابت: «أربعة عقول، متصلة بشكل ما في ظنِّي، ولكن ليس بالضَّبط»، وصمتت مرتبكةً وهزَّت رأسها قبل أن تردف: «أعني أنهم يشعرون بمشاعر

بعضهم بعضًا، مثلك حسب تخميني، ولكن ليس الأفكار، ليس التّفاصيل. يمكنني أن أقرأهم، لكنهم لا يقرؤون بعضهم بعضًا. كل منهم مُميّز. كانوا أقرب من قبل وهُم يدقُّون أجراسهم، وإن بقوا أفرادًا مختلفين».

سألتها شاعرًا بشيء من الإحباط: «أربعة عقول إذًا لا واحد؟».

همهمت: «نعم، أربعة».

- والجريشكة؟

فكرتي الفذّة الأخرى. إذا كانت للجريشكة عقول خاصّة بها...

- لا شيء. كأنني أقرأ نباتًا أو قطعة ثياب. ولا حتى نعم-أنا-حي.

أزعجني هذا. حتى الحيوانات الأدنى لديها نوع من الوعي المبهم بالحياة (الشّعور الذي يُسمّيه الموهوبون «نعم-أنا-حي»)، وهو عادةً مجرد شرارة خافتة تتطلّب صاحب موهبةٍ كبرى ليبصرها. لكن ليا صاحبة موهبة كبرى بالفعل.

قلت لها: «فلنذهب ونكلمهم»، فأومأت برأسها مؤيدةً، وخطونا إلى حيث يقف الأضفّاء الأربعة يمضغون لفائف اللّحم. قلت بارتباك متسائلًا عن طريقة مخاطبتهم: «مرحبًا. هل تتكلمون اللُّغة الأرضية؟».

رمقني ثلاثة منهم بلا فهم، أما الرّابع -الصّغير ذو الجريشكة الشّبيهة بحرملة متموجة- فهزّ رأسه من أعلى إلى أسفل، وأجاب بصوتٍ رفيع حاد: «نعم».

وجدتني أنسى فجأةً ما نويت أن أسأله، لكن ليا أنقذتني بقولها: «هل تعرف بشرًا أضفّاء؟».

قال بابتسامة واسعة: «الأضمّاء كلُّهم واحد».

قلت: «أوه. نعم، صحيح، لكن هل تعرف أي أضمّاء يشبهوننا؟ طوال، ولهم شعر وبشرة وردية أو بنية مثلًا؟»، ثم تلعثمت من الارتباك مجددًا وأنا أتساءل عن مقدار ما يعرفه الإشكيني العجوز من اللُّغة الأرضية، وفي الوقت نفسه أحدج جريشكته بقليل من التّوجس.

تأرجح رأسه من جانبٍ إلى جانب، وقال: «كل ضميم مختلف، لكن جميعهم واحد، جميعهم متشاوون. بعضهم يبدو مشلكما. هل ترغبان في الانضمام؟».

- لا، شكرًا. أين أجد بشرًا أضمّاء؟

مرة أخرى أرجح رأسه قائلًا: «الأضمّاء يغنُّون ويدقُّون أجراشهم ويتجوَّلون في المدينة المُقدَّشة».

كانت ليا تقرأ في هذه الأثناء، فأخبرتني: «لا يعرف. الأضمّاء يتسكّعون فقط ويقرعون الأجراس. لا نمط، ولا أحد يتابع حركتهم. المسألة كلها عشوائية. بعضهم يتحرك في جماعات وبعضهم بمفرده، وكلما التقت مجموعتان تكوَّنت واحدة جديدة».

- يجب أن نبحث.

قال لنا الإشكيني: «كلا»، ودسّ يديه في السلّة على الأرض متناولًا لفافتَي لحم يتصاعد منهما البخار، ووضع واحدة في يدي والثّانية في يد ليا.

نظرت إلى لفافتي بريبة، وقلت له: «أشكرك»، ثم جذبت ليا بيدي الخالية وابتعدنا معًا، وفيما غادرنا ابتسم لنا الأضمّاء ببشاشة، وقبل أن نبلغ منتصف

الشّارع عادوا يقرعون الأجراس.

لم تزَل لفافة اللّحم في يدي، تحرق قشرتها أصابعي، فسألت ليا: «هل آكل هذه؟».

أخذت قضمة من لفافتها، وقالت: «ولِمَ لا؟ لقد أكلنا مثلها ليلة أمس في المطعم، أليس كذلك؟ وأنا واثقة بأن ڤالكارنجي كان سيُحذِّرنا لو أن الطّعام الوطني سامٌّ».

بدا كلامها معقولًا، فرفعت اللّفافة إلى فمي وقضمت منها وأنا أمشي. وجدتها ساخنة، وحرّيفة أيضًا، ومختلفة تمامًا عن لفائف اللّحم التي جرَّبناها في اللّيلة السّابقة. تلك ذهبية هشّة مُتبّلة بقليل من بهار البرتقال من بالدَر، أمّا التي يطهوها الإشكين فمقرمشة، واللّحم في داخلها يقطر دُهنًا حرق فمي، لكنها كانت لذيذة، وأنا جائعًا، ولم تبقَ طويلًا.

بفمٍ مليء باللّحم السّاخن سألتُ ليا: «هل وصلتِ إلى أي شيء آخر حين قرأت الرّجل الصّغير؟».

ابتلعت ما في فمها، وأومأت مجيبة: «نعم. كان سعيدًا، أسعد من الآخرين. إنه أكبر سنًا ويقارب الاتّحاد الأخير، ويشعر بحماسة شديدة لهذا». تكلّمت بأسلوبها العفوي المألوف، فبدا أن آثار القراءة الثّانوية قد خبت.

قلت متأملًا بصوت مسموع: «لماذا؟ إنه في سبيله إلى الموت! لِمَ يسعده هذا؟».

هزّت ليا كتفيها قائلة: «للأسف لم يكن يفكر بتفصيل تحليلي دقيق».

لعقت أصابعي لأتخلّص من بقايا الدُّهن. كنا عند مفترق طُرق، والإشكين يتحركون بنشاطٍ من حولنا في كل اتجاه، والآن تناهى إلى مسامعنا مزيد من جلجلة الأجراس المحمولة على الرّيح.

قلت: «مزيد من الأضمّاء. هل تريدين البحث عنهم؟».

- وما الذي سنكتشفه ولسنا نعلمه بالفعل؟ إننا في حاجة إلى ضميمٍ بشري.

- قد يكون واحد من تلك المجموعة بشريًا.

لم أنَل من ليانا إلا نظرتها المتهكمة إذ قالت: «ها! وما احتمال ذلك؟».

سلّمت أمري قائلًا: «ليكن». كنا في ساعة متأخرة من الأصيل. «أفضلُ ربما أن نعود ونخرج في وقت أبكر غدًا. ثم إن دينو ينتظرنا على العشاء غالبًا».

***

قُدّم العشاء هذه المرة في مكتب ڤالكارنجي بعد الإتيان ببعض قطع الأثاث الإضافية. اتضح أن مسكنه يقع تحت المكتب بطابق، غير أنه يُفضّل استضافة زائريه في الطّابق العلوي، حيث يمكنهم الاستمتاع بالمشهد الباهر الذي يطلُّ عليه البرج.

ضمّ المكان خمسة منا إجمالًا: أنا وليا، وڤالكارنجي ولوري، ومعنا جورلاي. تولّت لوري الطّهو تحت إشراف الشّيف الأستاذ ڤالكارنجي، وأكلنا شرائح اللّحم المشوي من أبقار مُستولَدة على شكيا من قطيع مواشٍ من الأرض القديمة، بالإضافة إلى مزيجٍ مذهل من الخضراوات، احتوى على فطر من الأرض القديمة ونوى مطحون من بالدَر وأوراق الشّوك الحلو الإشكينية. يحبُ دينو التّجريب،

والطّبق واحد من ابتكاراته.

قدّمتْ وليا تقريرًا كاملًا عن مغامرات اليوم، لم يقاطعه إلا أسئلة ڤالكارنجي الثّاقبة النّبيهة، وبعد العشاء تخلّصنا من الموائد والأطباق وجلسنا نشرب القِلتار ونتكلم. هذه المرة ألقيتُ وليا الأسئلة، وزوّدَنا جورلاي بالسّواد الأعظم من الأجوبة، فيما أصغى ڤالكارنجي متكئًا على وسادة على الأرض، وقد طوّق لوري بإحدى ذراعيه وأمسك كأس النّبيذ بيده الأخرى.

أخبرَنا جورلاي بأننا لسنا أول مَن يزور شكيا من الموهوبين، ولا أول من يزعم أن الإشكين يشبهون البشر. «أظن أن لهذا معنى ما، لكنني لا أدري. إنهم ليسوا بشرًا حقًّا، لا يا سيدي. إنهم أشد ميلًا منا إلى الاجتماعية بكثير، على سبيل مثال واحد، وبُناة مُدن عظام منذ أمد طويل، يعيشون دومًا في الحواضر ويحيطون أنفسهم دومًا بالآخرين. كما أنهم أكثر اشتراكية من الإنسان، يتعاونون في مختلف الأمور، وتقديرهم للمشاركة عظيم. التّجارة مثلًا يرونها شراكةً متبادلةً».

ضاحكًا قال ڤالكارنجي: «أتفق معك. لقد قضيت النّهار بطوله في محاولة صياغة اتفاق تجاري مع مجموعة مزارعين لم يسبق لهم التّعامل معنا. المسألة ليست سهلة، صدّقوني. إنهم يعطوننا قدر ما نطلب من منتجاتهم إذا لم يحتاجوا إليها، وإذا لم يطلبها أحد آخر قبلنا، لكنهم يريدون الحصول على أي شيء يطلبونه هُم مستقبلًا، بل ويتوقّعون ذلك في الحقيقة، لذا متى أجرينا معهم صفقة وجدنا أمامنا خيارين: إمّا نعطيهم شيكًا على بياض وإمّا نخوض جولة لا تُعقَل من المحادثات، تنتهي باقتناعهم بأنانيّتنا التّامة».

لم تجد ليا الشّرح وافيًا، فسألت: «وماذا عن الجنس؟ بعض ما ترجمته ليلة

أمس خلّف لديّ انطباعًا بكونهم أحاديّي الأزواج».

قال جورلاي: «إنهم مرتبكون بخصوص العلاقات الجنسية. الأمر غريب جدًا. الجنس مشاركة كما هو معلوم، والمشاركة مع الجميع شيء جيد، لكن هذه المشاركة يجب أن تكون حقيقية وذات معنى، وهو ما يسبب عددًا من المشكلات».

اعتدلت لوري في جلستها بانتباه، وسارعت تقول: «لقد درستُ هذه النُّقطة. أخلاقيّات الإشكين تصرُّ على حبِّ الجميع بلا استثناء، لكنهم لا يقدرون على ذلك لأنهم بشريُّو الطِّباع جدًا، مُتملّكون جدًا. المطاف ينتهي بهم في علاقاتٍ أحادية الأزواج، لأن -في ثقافتهم- المشاركة الجنسية الحقيقية العميقة مع شخص واحد أفضل من مليون علاقة جسدية سطحية. الإشكيني النّموذجي يمارس المشاركة الجنسية مع الجميع، بحيث تتساوى كل صلة من هذه في العمق، إلا أنهم عاجزون عن تحقيق تلك الحالة المثالية».

قطّبت جبيني متسائلًا: «ألم يشعر أحدهم بالذّنب ليلة أمس لخيانته زوجته؟».

أومأت لوري برأسها بحماسة قائلة: «بلى، لكن الذّنب سببه أن علاقاته الأخرى قلّصت مشاركته مع زوجته. تلك تحديدًا هي الخيانة المقصودة. لو أنه تمكّن من تدبُّر الأمر من غير أن يؤذي علاقته الأقدم لأصبح الجنس بلا معنى، ولو أن علاقاته كلها مشاركة حبٍّ حقيقية لغُدّت إضافة إيجابية ولافتخرت به زوجته. إنه إنجاز كبير للإشكيني أن يكون في علاقة تعدُّدية ناجحة».

قال جورلاي: «وإحدى الجرائم المُنكَرة عند الإشكين أن يترك أحدُهم أحدَهم وحيدًا، وحيدًا عاطفيًا بلا مشاركة».

تأمَّلت هذا فيما واصل الكلام وأخبرَنا بأن الجريمة عند الإشكين محدودة، بخاصةٍ الجريمة العنيفة. لا قتل، لا ضرب، لا سجون، لا حروب في تاريخهم الخاوي الطَّويل.

أضاف ڤالكارنجي: «إنهم جنس بلا قتَلة، وهو ما قد يفسر شيئًا. على الأرض القديمة، غالبًا ما احتوت الثَّقافات ذات أعلى نِسب الانتحار على أدنى نِسب القتل أيضًا، ومعدل الانتحار عند الإشكين مئة بالمئة».

علَّقت: «إنهم يقتلون الحيوانات».

ردَّ جورلاي: «ليس هذا جزءًا من الاتَّحاد. الاتَّحاد يشمل كل ما يفكر، وليس مسموحًا بقتل كائناته، وهكذا لا يقتلون الإشكين، ولا البشر، ولا الجريشكة».

نظرت ليا إليَّ ثم إلى جورلاي، وقالت: «الجريشكة لا تفكر. لقد حاولت قراءتها هذا الصَّباح ولم أصل إلى شيء بخلاف عقول الإشكين التي تركبهم، ولا حتى نعم-أنا-حي».

نهض ڤالكارنجي قائلًا: «نعرف هذا، لكنها نقطة حيَّرتني دومًا»، وذهب إلى البار ليحضر مزيدًا من النَّبيذ، والتقط زجاجة ملأ منها كؤوسنا قبل أن يتابع: «طفيل عديم العقل تمامًا، لكنه يستعبد جنسًا ذكيًا مثل الإشكين، فلِمَ؟».

كان النَّبيذ الجديد مُبرَّدًا وطيبًا، وجرى في حلقي كسيل بارد. شربته وأومأت برأسي متذكرًا طوفان النَّشوة الذي اجتاحنا قبل ساعات، وقلت مُخمِّنًا: «المخدِّرات. مُؤكَّد أن الجريشكة تفرز مخدِّر متعة عضويًا، يخضع له الإشكين طواعيةً ويموتون سعداء. البهجة حقيقية، صدِّقني. لقد شعرنا بها».

على أن الشّك لاح على ليانا، وهزّ جورلاي رأسه بإصرار مُعقّبًا: «لا يا روب، غير صحيح. لقد أجرينا اختبارات على الجريشكة، و...».

ولا بد أنه لاحظ حاجبيّ المرفوعين، لأنه بتر عبارته.

سألته: «وماذا كان رأي الإشكين في هذا؟».

- لم نخبرهم. ما كان ذلك ليعجبهم البتّة. الجريشكة مجرد حيوان، لكنها إلههم، ويجب ألا تعبث مع الإله. أحجمنا عن ذلك وقتًا طويلًا، ولكن عندما انضمّ جوستافسن وجد ستيوَرت العجوز أن عليه أن يعرف، فألقى بالأمر بنفسه. في النّهاية لم نتوصّل إلى شيء. لا مستخلصات قد تكون مخدّرة، ولا إفرازات، لا شيء. في الحقيقة، الإشكين هُم الكائنات الحية الوطنية الوحيدة التي تخضع بمنتهى السُّهولة لهذه الطُّفيليات. لقد قبضنا على أنّان وثبّتنا على رأسه طفيلًا بالأحزمة وتركناه ليُكوّن الرّابط، ثم بعد ساعاتٍ قليلة خلعنا الأحزمة. كان الأنّان اللّعين ثائرًا، ما انفكّ يصرُّ وينبح ويهاجم الشّيء على رأسه، وكاد يُمزّق جمجمته بمخالبه قبل أن يخلعه.

في محاولة إنقاذٍ واهية قلت: «محتمَل أن الإشكين وحدهم قابلون للخضوع؟».

ردّ ڤالكارنجي بابتسامة صغيرة رفيعة:

«ليس بالضّبط. نحن أيضًا قابلون».

***

في الأنبوب لاذت ليا بصمت غريب أقرب إلى الانزواء. افترضتُ أنها تفكر في

محادثتنا، ولكن ما كاد باب جناحنا ينغلق وراءنا حتى التفتت إليّ وطوّقتني بذراعيها.

مددت يدي أملّس على شعرها البنّي النّاعم وقد أجفلني الحضن بعض الشّيء، وتمتمت: «ما الخطب؟».

منحتني نظرة مصّاصة الدّماء الهشّة واسعة العينين، وبعجلة هامسة مفاجئة قالت: «طارِحني الغرام يا روب، أرجوك، طارِحني الغرام حالًا».

ابتسمت، لكنها ابتسامة حائرة، لا ابتسامة غرفة النّوم الشّبِقة المعتادة. في أغلب الأحيان تتصرّف ليا بخبثٍ وشيطنة وهي هائجة، أمّا الآن فتبدو مضطربة واهنة، وهو ما لم أستطِع استيعابه تمامًا.

غير أنه ليس وقتًا للأسئلة، وهكذا لم أسأل، بل جذبتها إليّ بلا كلام وقبّلتها بحرارة، ثم دخلنا معًا غرفة النّوم.

ومارسنا الحبّ، مارسناه بحقٍّ وعلى نحو لا يستطيع العاديّون المساكين بلوغه. ضممنا جسدينا فصارا واحدًا، وأحسست بليا تتيبّس إذ مدّت عقلها إلى عقلي، وفي معية حركتنا فتحت لها نفسي، أغرقت نفسي في فيضان الحبّ والاحتياج والخوف المتدفق منها.

ثم، بسرعة بدئه، انتهى الأمر. غمرتني لذّتها بموجة حمراء صافية، ولحقت بها فوق القمّة، وتمسّكت بي ليا بشدة وقد انكمشت عيناها وهي تتشرّب نشوة اللّحظة بشراهة.

وبعدها تمدّدنا في الظّلام وتركنا نجوم شكيا تصبّ ضياءها من النّافذة، تلصق

ليا نفسها بي مريحةً رأسها على صدري وأمسّد أنا جسدها.

في الظُّلمة الزَّاخرة بالنُّجوم ابتسمتُ قائلًا بصوت ناعس حالم: «كان هذا حلوًا».

أجابت: «نعم»، فخرج صوتها ناعمًا خفيضًا، خفيضًا إلى درجة أنني سمعته بالكاد، ثم همسَت: «أحبُّك يا روب».

قلت: «آها. وأنا أحبُّكِ».

حلَّت نفسها من ذراعي، واضطجعت مُسندةً رأسها إلى يدها لتُحدِّق إليَّ مبتسمةً وتقول: «نعم، تحبُّني. قرأت هذا وأعرفه. وأنت تعرف كم أحبُّك أيضًا، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي وقلت بابتسامة: «بالتَّأكيد».

- نحن محظوظون. العاديُّون لا يملكون إلا الكلمات. مساكين العاديُّون. كيف يمكنهم أن يدركوا بمجرد كلمات؟ أنَّى لهم أن يعلموا حقًّا؟ إنهم منفصلون بعضهم عن بعض طوال الوقت، يحاول بعضهم الوصول إلى بعض ويفشلون. حتى عندما يمارسون الحبَّ، حتى عندما يبلغون الذُّروة، يكونون منفصلين دائمًا. لا بد أنهم يشعرون بوحدة بالغة».

انطوى ما قالته على شيء ما... مزعج.

نظرتُ إلى ليا، في عينيها المتألقتين السَّعيدتين، وفكرت في كلامها قبل أن أقول أخيرًا: «ربما. لكن الأمر ليس بذلك السّوء عندهم. إنهم لا يعرفون أي وسيلة أخرى، ويحاولون، وهم أيضًا يحبُّون. أحيانًا ينجحون في سدِّ الفجوة».

بصوت رهيف حزين قالت ليا مقتبسةً من قصيدة هنري وادزورث لونجفلو: «نظرةٌ فقط وصوت، ثم ظلامٌ من جديد وصمت»، ثم أتبعت: «نحن أسعد حظًّا، أليس كذلك؟ إننا نتمتّع بما هو أكثر أضعافًا».

ردّدت: «نحن أسعد حظًّا»، ومددت نفسي لأقرأها، لأجد عقلها سديمًا من الرّضى يعبق برائحةٍ رقيقة من الاشتياق الشّجي الموحش. لكن في أعمق أعماقها شيئًا آخر كذلك، يكاد يتلاشى، وإن ظلّ قابلًا للرّصد على نحوٍ خافت.

اعتدلت جالسًا، وقلت: «شيء ما يقلقكِ، وقبل قليل، عندما دخلنا، كنتِ خائفة. ما الأمر؟».

ردّت: «لا أدري». بدت نبرتها حائرة، وكانت حائرة حقًّا، فقد قرأت هذا. «كنت خائفة بالفعل، لكنني أجهل لِمَ. الأضمّاء السّبب على ما أظن. لقد ظللت أفكر في قدر حبّهم لي. إنهم لا يعرفونني حتى، لكنهم أحبّوني حبًا جمًّا، وفهموا. كان شعورًا شبيهًا بما بيننا. كان... لا أدري. ضايقني هذا. أقصد أني لم أحسب قَطُّ أني قد أُحَبُّ بتلك الطّريقة إلا منك فقط. وكانوا قريبين بعضهم من بعض للغاية، معًا فعلًا. شعرت بنوع من الوحدة ونحن متعانقَي اليدين ونتكلم، وأردت أن أكون قريبة منك على غرارهم. بعد الطّريقة التي تشاركوا بها كل شيء وجدتُ الوحدة خواءً، وجدتها مرعبة. أتفهم؟».

عدت ألمسها بيدي وعقلي مجددًا وأنا أقول: «أعرف. أفهمكِ. كلانا يفهم الآخر حقًّا. إننا معًا مثلما هم معًا تقريبًا، ومثلما لا يستطيع العاديّون أن يكونوا معًا أبدًا».

أومأت ليا برأسها، وابتسمَت، واحتضنَتني، وخلد كلانا إلى النَّوم بين ذراعَي الآخر.

الأحلام مرَّة أخرى، ومرَّة أخرى تسلَّلت مني الذِّكرى مع مطلع الفجر. كدَّرني هذا للغاية، فالحلم كان سارًّا مريحًا، وأردت استعادته لكني لم أستطِع مجرد تذكُّره، والآن تبدو غرفة نومنا المغمورة بضوء النَّهار القاسي باهتة كئيبة مقارنةً برؤياي الضَّائعة.

استيقظت ليا بعدي مصابةً بصداع آخر، ولو أن الحبوب في متناول يدها هذه المرَّة، على المنضدة المجاورة للسَّرير، فأخذت واحدة وقد التوَت قسماتها.

قلت لها: «مُؤكَّد أن النَّبيذ الإشكيني السَّبب. شيء ما فيه يُؤثِّر سلبًا على تمثيلك الغذائي».

وضعت رداءً منزليًا نظيفًا، ورمقتني بعبوس قائلة: «ها! البارحة شربنا القِلتار، أتذكُر؟ أبي ناولَني أول كأس قِلتار وأنا في التَّاسعة، ولم يُصِبني بالصُّداع قَطُّ».

رددت مبتسمًا: «لكل شيء مرَّة أولى!».

- ليس هذا طريفًا. رأسي يوجعني.

كففت عن المزاح وحاولت قراءتها، فوجدتها مُحقَّة، إنها مُتوجِّعة بالفعل، جبهتها كلها تنبض ألمًا.

ثم أسرعت أنسحب قبل أن يصيبني الصُّداع بدوري.

قلت: «حسن، أنا آسف. لكن الحبوب ستعالجه، وفي تلك الأثناء عندنا عمل».

أومأت ليا برأسها موافقةً. لم يحدث من قبل أن سمحَت لشيء باعتراض سبيل العمل.

تألّف اليوم الثّاني من بحثٍ عن بشر. تحركنا في وقت أبكر كثيرًا، وتناولنا إفطارًا سريعًا مع جورلاي، ثم أخذنا عربتنا الهوائية من خارج البرج. هذه المرّة لم نهبط حين وصلنا إلى بلدة الإشكين، فقد أردنا ضميمًا بشريًا، وهو ما يعني أن علينا تغطية حيز واسع. هذه المدينة أكبر ما رأيت على الإطلاق -مساحةً على الأقل- والألف بشري أو نحوهم من معتنقي العقيدة المحلية ضائعون وسط ملايين الإشكين، ومن بين هؤلاء البشر لم ينضمّ فعليًا حتى الآن إلا نصفهم تقريبًا.

وهكذا حافظنا على انخفاض العربة، التي مضت مطلقةً طنينها أعلى التّلال المُرقّطة بالقباب وأسفلها مثل قطار أفعواني طافٍ، مُسبّبةً كثيرًا من القلقلة في الشّوارع من تحتنا. بالطّبع رأى الإشكين العربات الهوائية من قبل، إلا أنها لا تزال تبدو لهم بدعة تثير الاهتمام، خصوصًا عند الأطفال الذين حاولوا الجري وراءنا متى مررنا بهم مسرعين. علاوةً على ذلك، أفزعنا أُنَانًا ليقلب العربة المليئة بالفواكه التي يجرُّها، وهي الحادثة التي أشعرتني بالذّنب، ومن بعدها أبقيت العربة على ارتفاع أعلى.

لمحنا الأضمّاء في جميع أرجاء المدينة، يغنُّون ويأكلون ويمشون ويدقُّون الأجراس، تلك الأجراس البرُنز الأبدية، لكن طوال السّاعات الثّلاث الأولى لم نرَ غير أضمّاء إشكين، وقد تناوبتُ مع ليا على القيادة والمراقبة. بعد إثارة اليوم السّابق، وجدنا البحث مملًا متعبًا.

على أننا عثرنا على شيء في النّهاية: مجموعة كبيرة من الأضمّاء، عشرة منهم يتحلّقون حول عربة خُبز وراء أحد التّلال الأشد انحدارًا، بينهم اثنان أطول قامة من البقية.

حططنا على جانب التّل الآخر ودُرنا حوله سيرًا على الأقدام لنقابلهم، تاركَين عربتنا الهوائية محاصرةً بحشد من أطفال الإشكين. وجدنا الأضمّاء ما زالوا يأكلون عندما وصلنا. ثمانية منهم إشكين من مختلف الأحجام ودرجات اللّون، أمّا الاثنان الآخران فبشريّان يرتديان العباءة الحمراء الطّويلة على غرار الإشكين، ويحملان الأجراس نفسها. أحدهما رجل كبير الحجم، جلده رخو مُتهدّل كأنه فقد كثيرًا من الوزن في الآونة الأخيرة، وله شعر أبيض مجعد ووجه تُميّزه ابتسامة عريضة وتجاعيد الضّحك حول عينيه. والثّاني رجل نحيل خبيث أشبه بابن عرس، وله أنف كبير معقوف.

وفوق رأس كليهما جريشكة تمصّ جمجمته. الطّفيل الذي يركب ابن عرس بالكاد يناهز البثرة حجمًا، أمّا الرّجل الآخر الأكبر سنًّا فتعتليه عيّنة فاخرة تنسدل متجاوزةً كتفيه داخل ظهر عباءته.

وبشكلٍ ما بدا المنظر بشعًا حقًّا هذه المرة.

تقدّمت وليانا إليهما محاولَين بشدة أن نبتسم، ولكن من غير أن نقرأ، في البداية على الأقل. ومع دُنوّنا ابتسما، ثم لوّحا لنا.

عندما وصلنا قال ابن عرس ببشاشة: «مرحبًا. لم أرَكما من قبل. أأنتما جديدان على شكيا؟».

أدهشني هذا قليلًا. لقد توقّعت تحية غامضة مقتضبة، أو ربما لا تحية من الأصل، إذ افترضت أن المعتنقين البشر يهجرون إنسانيتهم بصورة ما ليصيروا إشكينًا زائفين، ولكن اتضح أنني مخطئ.

أجبت: «نوعًا»، وبدأت أقرأ ابن عرس، لأجده مسرورًا بحقٍّ لرؤيتنا، وفي نفسه تعتمل القناعة والمرح. ثم قلت وقد قرّرت أن أكلمه بصدق: «لقد عيّنونا لنتكلم مع من هُم مثلك».

اتسعت ابتسامة ابن عرس على نحو لم أحسبه ممكنًا، وقال: «أنا ضميم، وسعيد. يسرُّني أن أتكلم معك. اسمي لستر كامنز. ماذا تريد أن تعرف يا أخي؟».

رأيت ليا الواقفة إلى جواري تتيبّس، فقرّرت أن أدعها تقرأ ما في الأعماق فيما ألقي أنا الأسئلة. «متى اعتنقت الملّة؟».

ردّد كامنز: «الملّة؟».

- الاتّحاد.

أومأ برأسه، وأذهلني التّشابه الفظيع بين حركته وبين حركة الإشكيني المُسن الذي رأيناه أمس. «كنت دائمًا جزءًا من الاتّحاد. أنت جزء من الاتّحاد. كل كائن مفكر جزء من الاتّحاد».

- بعضنا لم يبلغه الخبر. وماذا عنك؟ متى أدركت أنك جزء من الاتّحاد؟

- قبل عام بزمن الأرض القديمة. لم ألتحق بصفوف الأضمّاء إلا منذ أسابيع قليلة. الانضمام الأول وقت بهيج. أنا مبتهج. الآن أجول في الشّوارع وأدقّ جرسيّ حتى وقت الاتّحاد الأخير.

- وماذا عملت من قبل؟

ردَّد: «من قبل؟»، ولاحت على وجهه نظرة مبهمة قصيرة قبل أن يقول: «كنت أدير الآلات في الماضي، أدير أجهزة الكمبيوتر في البرج. لكن حياتي كانت خاوية يا أخي. لم أعلم أني في الاتّحاد، وعشت في وحدة. لم يكن لي إلا آلاتي، تلك الآلات الباردة. الآن أنا ضميم، الآن أنا...»، وثانيةً فتّش في عقله، ثم أكمل: «... لستُ وحدي».

غصت في داخله ووجدت السّعادة كما هي، ومعها الحب، لكن فيه وجعًا أيضًا الآن، استعادة ضبابية لألم من الماضي، الرّائحة الكريهة المنبعثة من الذّكريات غير المرغوبة. هل خبت تلك الذّكريات؟ يجوز أن الهدية التي تمنحها الجريشكة لضحاياها هي النّسيان، غفلة حلوة مريحة ونهاية للمعاناة. محتمل.

قرّرت أن أجرب شيئًا، فقلت بحدة: «هذا الشّيء على رأسك طفيل. إنه يشرب دمك في هذه اللّحظة، يتغذّى عليه، ومع نموّه سيأخذ مزيدًا ومزيدًا من الأشياء التي تحتاج إليها لتعيش، وأخيرًا سيبدأ في أكل أنسجتك. هل تفهم؟ سيأكلك أكلًا. لا أدري كم سيؤلمك ذلك، لكن مهما كان إحساسك به فسينتهي الأمر بموتك ما لم ترجع إلى البرج الآن وتترك الجرّاحين يزيلونه. أو قد يمكنك إزالته بنفسك. لِمَ لا تحاول؟ مدّ يدك واخلعه، هيّا».

توقّعت... ماذا؟ الغضب؟ الذُعر؟ الاشمئزاز؟ لم أتلقّ شيئًا من ذلك، بل اكتفى كامنز بحشو فمه بالخُبز والابتسام لي، ولم أقرأ إلا الحبّ والفرحة وشيئًا من الشّفقة.

في النّهاية قال: «الجريشكة لا تقتل. الجريشكة تمنحك المسرّة والاتّحاد السّعيد. وحدهم الذين بلا جريشكة يموتون. إنهم... وحيدون، أوه، إلى الأبد وحيدون». لحظتها ارتجف شيء ما في عقله بخوف مباغت، لكنه سرعان ما خفت.

ألقيت بنظرة عابرة على ليا، لأجدها مُتيبّسة الجسد مُتصلّبة العينين، ما زالت تقرأ.

عدت أنظر نحو كامنز وبدأت أصوغ سؤالًا آخر، غير أن الأضمّاء أخذوا يدقّون الأجراس من جديد. استهلّ أحد الإشكين الدّق مُلوّحًا بجرسه من أعلى إلى أسفل ليصدر رنّة حادة واحدة، ثم تأرجحت يده الأخرى، ثم الأولى، ثم الثّانية، ثم شرع ضميم آخر يدقّ، وآخر، وإذا بهم جميعًا يؤرجحون أذرعهم ويقرعون أجراسهم بضجيج ارتطم بأذنيّ ارتطامًا، وقد كرّ الابتهاج والحب والشّعور بالأجراس على عقلي في هجمة جديدة.

ومكثت لأتلذّذ بهذه الحالة.

خلّاب هذا الحبّ، رهيب، يكاد يصير مخيفًا من فرط حرارته وبأسه، وثمّة مشاركة غزيرة يمرح المرء فيها ويتعجّب منها، ويا لها من لوحة مُنمّقة، لوحة مُهدّئة مُلطّفة مُفرِحة من المشاعر الطّيبة. شيء ما يحدث للأضمّاء عندما يدقّون أجراسهم، شيء ما يلمسهم ويسمو بهم ويضفي عليهم وهجًا، شيء غريب مجيد لا يستطيع العاديّون البسطاء سماعه في جلجلة موسيقاهم الخشنة. بيد أني لست عاديًا، واستطعت سماعه.

انسحبت ببطء وعلى مضض. الآن يدقّ كامنز والبشري الآخر أجراسهما بقوة،

تنفرج شفاههما في ابتسامة عريضة وتتوهّج أعينهما وتتلألأ مُبدّلةً ملامحهما. لم تزَل ليانا تقرأ بفم مفتوح بعض الشّيء ورجفة انتابتها حيث وقفَت.

طوّقتها بذراعي وانتظرت مصغيًا إلى الموسيقى بصبر، واستمرّت ليانا في القراءة. أخيرًا بعد دقائق هززتها برفق، لتلتفت ممعنةً النّظر إليّ بعينين قاسيتين شاردتين، قبل أن يرفّ جفناها وتتسع عيناها وتعود هازّةً رأسها عاقدةً حاجبيها.

وحائرًا نظرت داخل رأسها. أغرب وأغرب. ألفيته دوّامةً ضبابيةً من المشاعر، خليطًا كثيفًا متحركًا من أحاسيس أكثر من قُدرتي على تسميتها، وما كدت أدخل حتى تهت، تهت واضطربت. في مكان ما في الضّباب هاوية بلا قرار، كامنة تنتظر ابتلاعي. هذا ما شعرت به على الأقل.

- ليا، ما الخطب؟

هزّت رأسها ثانية، ورمت الأضمّاء بنظرة تساوى فيها الخوف والاشتياق.

كرّرت سؤالي، فقالت: «لا... لا أدري. روب، دعنا لا نتكلم الآن. فلنذهب. أريد وقتًا لأفكر».

قلت: «طيّب». ما الذي يحدث هنا؟ أخذت يدها ومشينا على مهلٍ حول التّل نحو المنحدر حيث تركنا العربة، التي راح الأطفال الإشكين يتسلّقونها من كل جانب، فطاردتهم ضاحكًا. أمّا ليا فوقفت في مكانها فحسب بنظرة ذاهلة نائية عني تمامًا. أردت أن أقرأها مجددًا، لكنني شعرت بشكل ما أن في ذلك انتهاكًا للخصوصية.

في الهواء شققنا الطّريق صوب البرج على ارتفاعٍ أعلى وقد حثّتنا الحركة هذه

المرة، وتولّيت القيادة فيما جلست ليا إلى جانبي محملقةً إلى الأفق البعيد.

سألتها محاولًا إعادة ذهنها إلى تكليفنا: «هل حصلتِ على شيء مفيد؟».

- نعم. لا. ربما.

خرج صوتها سارحًا، كأن جزءًا منها فقط يكلمني. «لقد قرأت حياتيهما، كلا الرّجلين. كامنز عمل مبرمج كمپيوتر كما قال، لكنه لم يبرع في عمله، بل كان رجلًا تافهًا قبيحًا صاحب شخصية تافهة قبيحة، بلا أصدقاء، بلا علاقات جنسية، بلا أي شيء، يعيش بمفرده ويتحاشى الإشكين ولا يحبُّهم على الإطلاق. لم يحبّ البشر حتى. لكن جوستافسن استطاع النّفاذ إلى كامنز بوسيلة ما، تجاهل بروده وتعليقاته اللّاذعة المريرة ودعاباته القاسية ولم يردّ بالمثل، وبعد فترة بدأ جوستافسن يعجب كامنز وينال تقديره. لم يكونا صديقين حقًّا بالمعنى التّقليدي، ولو أن جوستافسن أقرب مَن حظي به كامنز إلى صديق».

توقّفت فجأةً، فاستحثثتها: «وهكذا اعتنق ديانة الإشكين مع جوستافسن؟»، ورمقتها بنظرة سريعة، لأرى عينيها ما زالتا على شرودهما.

- ليس في البداية. كان لا يزال خائفًا، يخشى الإشكين وترعبه الجريشكة. لكن لاحقًا، بعد رحيل جوستافسن، بدأ يعي فراغ حياته. لقد اعتاد أن يعمل طيلة النهار مع أناس يحتقرونه وآلات لا تبالي، ثم يجلس وحيدًا ليلًا ليقرأ ويتفرّج على البرامج الهولوجرامية. ليست حياة حقيقية، بالكاد يلمس النّاس المحيطين به. وأخيرًا ذهب ليعثر على جوستافسن، وانتهى به المطاف معتنقًا ديانة الإشكين. والآن...».

- الآن؟

تردّدت، ثم واصلت: «إنه سعيد يا روب، سعيد حقًا، للمرة الأولى في حياته سعيد. قبل ذلك لم يعرف الحبّ قَطّ، والآن يُفعِمه».

- حصلتِ على قدرٍ كبير.

- نعم.

الصّوت السّارح نفسه، والعينان التّائهتان.

- كان منفتحًا نوعًا. توجد مستويات، لكن التّنقيب فيها لم يكن بالصُّعوبة المعتادة... كأن حواجزه تضعف، تكاد تتهاوى».

- وماذا عن الرَّجل الثّاني؟

تحسّست لوحة التّحكم ناظرةً إلى يدها لا غير، وقالت: «هو؟ هذا جوستافسن».

وعلى حين غرّةٍ بدا أن هذا أيقظها، أعادها ليا التي أعرفها وأحبُّها. هزّت رأسها ونظرت إليّ، واستحال الصّوت الهائم إلى سيل كلمات مليء بالحيوية. «روب، اسمع، هذا جوستافسن! إنه ضميم منذ أكثر من سنة، وسيذهب إلى الاتّحاد الأخير في غضون أسبوع. الجريشكة قبلته ويريدها، هل تفهم؟ إنه يريدها حقًا، و... و... أوه، روب، إنه في طريقه إلى الموت!».

- نعم، خلال أسبوع طبقًا لما ذكرتِه من فوركِ.

- لا. أعني نعم، لكني لا أقصد ذلك. بالنّسبة إليه ليس الاتّحاد الأخير موتًا. إنه

يؤمن به، بالأمر كله، الدّيانة كلها. الجريشكة إلهه، وهو ذاهب للانضمام إليه. لكن قبل ذلك، ليس الآن، كان جوستافسن يُحتضَر بالفعل. إنه مصاب بالطّاعون البطيء يا روب، حالة ميؤوس منها. المرض يأكله من الدّاخل منذ خمسة عشر عامًا، منذ أُصيب به في المستنقعات على كوكب الكوابيس حين ماتت أسرته. ليس ذلك عالمًا للبشر، إلا أنه ذهب إلى هناك ليعمل مديرًا لقاعدة أبحاث، مهمة قصيرة. زوجته وأطفاله عاشوا على كوكب ثور، وجاؤوا في زيارة فقط، لكن السّفينة سقطت. ثار جوستافسن وحاول الوصول إليهم قبل النّهاية، لكنه أخذ بذلة مستنقعات تالفة ونفذت منها الجراثيم، ولما وصل وجدهم موتى جميعًا. يا للألم الرّهيب الذي عاناه يا روب! من الطّاعون البطيء، لكن أكثره من الخسارة. لقد أحبّهم حقًّا، وبعدهم لم تعُد الحياة كما كانت. ثم إنه أُعطِيَ شكيا على سبيل المكافأة، ليشغل ذهنه عن التّفكير في الحادثة، وإن ظلّ يفكر فيها بلا انقطاع. لقد رأيت الصُّورة يا روب، كانت جليّة، لم يستطِع نسيانها. كان الأطفال داخل السّفينة، آمنين وراء الجدران، لكن نظام الإعاشة تعطّل وخنقهم حتى الموت. أما زوجته -أوه، روب- فأخذت بذلة مستنقعات وحاولت الذّهاب للإتيان بالنّجدة، لكن في الخارج، تلك الأشياء، تلك اليرقات الكبيرة على كوكب الكوابيس...؟».

ابتلعت ريقي بقوّة شاعرًا بشيء من الغثيان، وقلت بفتور: «الدُّود الأكّال». لقد قرأت عنه وشاهدت عروضًا هولوجرامية، وبوسعي تخيُّل الصُّورة التي رأتها ليا في ذاكرة جوستافسن، صورة ليست جميلة إطلاقًا. سرّني أني لا أتمتّع بموهبتها.

- كانت الدّيدان لا تزال... لا تزال... عندما وصل. قتلها كلها بمسدس صرير.

هززتُ رأسي قائلًا: «لم أحسب أن أشياء من هذا القبيل تحدث حقًّا».

ردّت ليا: «نعم، ولا جوستافسن حسب ذلك. لقد كانا في... في غاية السّعادة قبلها، قبل ما وقع على كوكب الكوابيس. أحبّها، وكانا قريبين جدًا، ويبدو سلكه الوظيفي كأنه مسحور. لم يُضطرّ إلى الذّهاب إلى كوكب الكوابيس، بل قبلَ التّكليف من باب التّحدي، لأن أحدًا آخر لم يستطِع التّعامل مع مهمة كتلك. هذا أيضًا ينهشه من داخله، ويذكره طيلة الوقت. إنه... إنهما...»، وتذبذب صوتها، وقبل أن تلوذ بالصّمت قالت: «لقد حسبا نفسيهما محظوظين!».

لم أجد ما يُقال ردًا على هذا، فلزمت الصّمت وواصلت القيادة مفكرًا، شاعرًا بنسخة مُشوّشة مُخفّفة من الألم الذي قاساه جوستافسن لا بد.

بعد فترة استأنفت ليا الكلام، وبصوت أهدأ وأبطأ، صوت عاد إلى استغراقه في التّفكير، قالت: «ما زالت القصة كلها موجودة يا روب، لكنه في سلام. إنه يذكر كل شيء وما شعر به من ألم، لكنه لم يعُد منزعجًا. الفرق الآن أنه يشعر بالأسف لأنهم ليسوا معه، لأنهم ماتوا دون الاتّحاد الأخير. مثل المرأة الإشكينية تقريبًا، أتذكرها؟ تلك التي تكلمت خلال التّجمع عن أخيها؟».

- أذكر.

- مثل هذا. وعقله منفتح أيضًا، أكثر من كامنز، أكثر كثيرًا. حين دقّ جرسيه تلاشت المستويات جميعًا وأصبح كل شيء على السّطح، كل الحبّ والآلام وخلافه، حياته بأكملها يا روب. في لحظة شاركته حياته بأكملها، وأفكاره كلها أيضًا. لقد رأى كهوف الاتّحاد... نزل إليها مرّة قبل اعتناق الدّيانة. إنني...

مزيدٌ من الصّمت حفّنا وأظلمَ العربة. كنا قرب طرف بلدة الإشكين، والبرج من أمامنا يشقّ السّماء ملتمعًا في الشّمس، وقد بدأت قباب مدينة البشر الواطئة

وقناطرها تلوح في مجال البصر.

قالت ليا: «روب، اهبط هنا. يجب أن أفكر بعض الوقت. عُد من غيري. أريد أن أمشي مدةً بين الإشكين».

نظرت إليها مُقطّبًا وجهي، وقلت: «تمشين؟ الطّريق إلى البرج طويل يا ليا».

- سأكون بخير. من فضلك، دعني أفكر قليلًا.

قرأتها، فوجدت ضباب الأفكار عاد أشد كثافة، وتتخلّله ألوان الخوف.

قلت: «أأنت واثقة؟ إنك خائفة يا ليانا، فلِمَ؟ ما الخطب؟ الدُود الأكّال بعيد جدًا عن هنا».

اكتفت بالنّظر إليّ باضطراب مكرّرةً: «من فضلك يا روب».

ولم أدرِ ماذا أفعل غير تلبية طلبها، فحططت بالعربة.

***

أنا أيضًا فكرت إذ قدت العربة الهوائية عائدًا، في ما قالته ليانا وقرأته، وفي كامنز وجوستافسن. ركّزت تفكيري على المشكلة التي كُلّفنا بحلّها، وحاولت إبعاده عن ليا وما يزعجها أيًا كان، قائلًا لنفسي إن المسألة ستحَلُّ من تلقاء ذاتها.

لم أُضيّع وقتًا لدى عودتي إلى البرج، بل صعدت من فوري إلى مكتب ڤالكارنجي. وجدته بمفرده، يُدرِج بعض التّعليمات في آلة، وقد أغلقها عندما دخلت، وبادرني: «أهلًا يا روب. أين ليا؟».

- تتمشّى. أرادت أن تفكر. أنا أيضًا كنت أفكر، وأعتقد أنني توصّلت إلى الجواب.

رفع حاجبَيه منتظرًا، فتابعت: «عثرنا على جوستافسن اليوم بعد الظُّهر، وقرأته ليا. أظن أن سبب اعتناقه ديانتهم واضح. لقد كان رجلًا مكسورًا من داخله مهما ابتسم، والجريشكة منحته نهاية لألمه. ورافقه معتنق آخر اسمه لستر كامنز؛ هو أيضًا كان تعيسًا، رجلًا وحيدًا بائسًا بلا أي شيء يحيا من أجله. لِمَ لا يعتنق ديانة الإشكين إذًا؟ استعلِم عن المعتنقين الآخرين وأراهن أنك ستجد نمطًا ملحوظًا. الأشد ضياعًا والواهنون، الفشلة والمعزولون... هؤلاء من ستجدهم لجؤوا إلى الاتّحاد».

أومأ ڤالكارنجي برأسه، وقال: «حسن، سأصدق هذا، لكن ذوي الإدراك الفائق للحواس الذين استعنّا بهم خمّنوه بالفعل منذ وقت طويل يا روب. ليس هذا جوابًا حقًّا. صحيحٌ أن المعتنقين إجمالًا كانوا أناسًا في حالة مزرية، لن أجادل في هذا، ولكن لِمَ اللُّجوء إلى ملّة الاتّحاد؟ أصحاب الإدراك الفائق للحواس لا يستطيعون الإجابة عن السُّؤال. لنضرب مثلًا بجوستافسن. كان رجلًا قويًا، صدّقني. لم أعرفه شخصيًا، لكنني اطّلعت على مساره الوظيفي، وأعرف أنه قبلَ عددًا من المأموريات العويصة على سبيل المتعة لا أكثر، وذلّل ما فيها من عقبات. أمكنَه أن يحظى بالوظائف السَّلسة، غير أنه لم يهتمّ بها. لقد سمعت بما وقع على كوكب الكوابيس. إنها حادثة شهيرة، ولو أن شهرتها من النَّوع الملتوي. لكن فيل جوستافسن لم يكن بالرَّجل الذي يُهزَم ولو لسببٍ كهذا، وقد أفاق من حالته بسرعة شديدة حسبما أخبرني نلس. لقد جاء إلى شكيا فنظّم المكان ونظّف الفوضى التي خلّفها رُكوود، ومرّر أول اتفاقية تجارية حقيقية أجريناها هنا، وهو من جعل الإشكين يفهمون ما تعنيه، وذلك ليس سهلًا. ها هو ذا إذًا

رجل موهوب كفء بنى مسارًا مهنيًا ناجحًا من قهر المهام الصّعبة والتّصرف مع النّاس. هذا الرّجل مرّ بكابوس شخصي، لكن الكابوس لم يُدمّره، ولم يزَل يتحلّى بصلابته المعهودة. ثم إذا به يلجأ إلى ملّة الاتّحاد ويسعى لانتحارٍ شنيع. لماذا؟ لينتهي ألمه كما تقول؟ نظرية مثيرة للاهتمام، ولكن توجد وسائل أخرى لإنهاء الألم. جوستافسن عاش أعوامًا بعد كوكب الكوابيس وقبل الجريشكة، ولم يفرّ من ألمه عندئذ؛ لم ينصرف إلى الشُّرب ولا المخدرات ولا أيٍّ من سُبل الهرب الأخرى، ولم يرجع إلى الأرض القديمة ليجعل واحدًا من ذوي القدرات النّفسية الخارقة يُنظّف ذاكرته. وصدّقني، لو أراد ذلك لقدر على دفع التّكلفة، فبعد ما حدث على كوكب الكوابيس كان المكتب الاستيطاني ليفعل أي شيء من أجله. غير أنه واصل حياته وابتلع آلامه وأعاد البناء... إلى أن اعتنق الدّيانة الإشكينية فجأةً. ألمه أضعفه، نعم، لا شكّ في هذا، لكن شيئًا ما دفعه إلى ذلك، شيئًا يتيحه الاتّحاد، شيئًا لم يستطِع الحصول عليه من النّبيذ أو مسح الذّاكرة. الكلام نفسه ينطبق على كامنز والآخرين. كانت لديهم طرائق أخرى للفرار، طرائق للتّصويت على الحياة بلا، إلا أنهم امتنعوا عنها واختاروا الاتّحاد. هل ترى ما أرمي إليه؟».

فهمت بالطّبع. جوابي ليس جوابًا على الإطلاق، وأدركت هذا. على أن ڤالكارنجي أيضًا مخطئ في بعض الأشياء.

قلت: «نعم. أظن أن أمامنا مزيدًا من القراءة»، وابتسمت بشحوب مردفًا: «عندي نقطة. جوستافسن لم يتغلّب على ألمه حقًّا. ليا ذكرت هذا بمنتهى الوضوح. الألم ظلّ في داخله طوال الوقت، يعذبه، لكنه لم يسمح له بالخروج إلى السّطح».

علّق ڤالكارنجي: «وهذا انتصار، أليس كذلك؟ إذا دفنت أوجاعك في عمق

سحيق فلن يدرك أحد أنك تعانيها؟».

- لا أدري. لا أظن. لكن... على كل حال، يوجد مزيد. جوستافسن مصاب بالطّاعون البطيء. إنه يُحتضَر، يُحتضَر منذ أعوام.

تذبذب التّعبير على وجه ڤالكارنجي وهلةً، وقال: «لم أعرف ذلك، لكنه يدعم وجهة نظري. لقد قرأت أن ثمانين في المئة من ضحايا الطّاعون البطيء يؤثرون الموت الرّحيم إن تصادف وجودهم على كوكبٍ يُشرّعه. جوستافسن كان المدير الكوكبي، ولأمكنه أن يجعل الموت الرّحيم قانونيًا. إذا امتنع عن الانتحار تلك الأعوام كلها، فلِمَ يختاره الآن؟».

لم أملك إجابة عن ذلك، وإن ملكت ليانا واحدة فإنها لم تُزوّدني بها. ولم أدرِ أين يمكننا العثور على إجابة كذلك، ما لم...

قلت فجأةً: «الكهوف، كهوف الاتّحاد. يجب أن نشهد اتّحادا أخيرًا. مُؤكّد أنه ينطوي على شيء ما، شيء ما يفسر اعتناق البشر ديانة الإشكين. أعطِنا فرصة لاكتشاف ماهيته».

ابتسم قائلًا: «حسن. يمكنني أن أرتّب هذا. توقّعت أن تبلغ الأمور ذلك الحد. ولكن دعني أحذرك، إنه ليس مشهدًا سارًا. لقد ذهبت بنفسي وأعرف عمّ أتكلم».

- لا بأس. إذا حسبت قراءة جوستافسن ممتعةً بأي شكل لكان عليك أن ترى ليا عندما فرغت. إنها بالخارج الآن، تحاول التّغلب على الأمر بالمشي.

هكذا حزمت أمري بشأن الأمر الذي لا بد أنه يزعجها. «لن يكون الاتّحاد الأخير أسوأ بحال من تلك الذّكريات عن كوكب الكوابيس، أنا واثق».

- اتفقنا. سأرتب لزيارتكما غدًا. سأذهب معكما بالطّبع، فلا أريد المخاطرة بوقوع أي شيء لكما.

أومأت برأسي، وقال ڤالكارنجي وهو ينهض: «ليكن إذًا. حتى ذلك الحين دعنا نفكر في أشياء أكثر إثارة للاهتمام. ألديك خطط للعشاء؟».

أكلنا في صحبة جورلاي ولوري بلاكبرن في مطعم يحاكي الطّراز الإشكيني ويديره بشر، وتألّف الحديث في الغالب من ضوضاء اجتماعية عن الرّياضة والسّياسة والفنون والنّكات القديمة وما إلى ذلك، ولا أظن أن أحدًا أتى على ذكر الإشكين أو الجريشكة طوال الأمسية.

ولما عدت إلى جناحنا وجدت ليا تنتظرني، جالسةً في الفراش تقرأ أحد المجلدات الأنيقة من مكتبتنا، كتابًا من أشعار الأرض القديمة.

رفعَت نظرها عندما دخلت، وحيّيتها وسألتها: «كيف كانت تمشيتكِ؟».

أجابت: «طويلة»، وزركشت وجهها الصّغير الشّاحب ابتسامة سرعان ما خبت، وتابعت ليا: «لكنني حظيت بوقت للتّفكير، في ما حدث اليوم، وأمس، وفي الأضمّاء، وفينا».

- فينا؟

- روب، هل تحبّني؟

طَرح السّؤال بأسلوب في حكم العملي، بنبرة مليئة بالتّساؤل، كأنها لا تعلم، كأنها حقيقةً لا تعلم.

جلست على الفراش ممسكًا يدها، وقلت محاولًا الابتسام: «بالطّبع. تعلمين هذا يا ليا».

قالت: «كنت أعلمه. نعم، أعلمه. أنت تحبّني يا روب، تحبّني حقًّا، بقدر ما يمكن لإنسان أن يحبّ، ولكن...»، وبترت عبارتها وهزّت رأسها مغلقةً كتابها، ثم تنهّدت مواصلةً: «ولكننا ما زلنا منفصلَين يا روب، ما زلنا منفصلَين».

- عمّ تتكلمين؟!

- اليوم. بعد ما حدث كنت مرتبكة للغاية، وخائفة. لم أعرف السبب يقينًا، لكنني فكّرت. روب، بينما أقرأ... كنت هناك مع الأضمّاء، أشارك فيهم وفي حبهم، كنت في داخل كل هذا فعلًا ولم أرغب في الخروج، لم أرغب في تركهم يا روب. وعندما تركتهم شعرت أني معزولة جدًّا، مقصيّة جدًّا.

- إنها غلطتكِ. حاولت أن أكلمكِ، لكنكِ كنتِ مستغرقة تمامًا في التّفكير.

- تكلمني؟ وما جدوى الكلام؟ إنه تواصُل على ما أظن، ولكن أهو كذلك حقًّا؟ هكذا حسبت قبل أن يُدرّبوني على استخدام موهبتي، وبعدها بدا لي أن القراءة هي التّواصل الحقيقي، الوسيلة الفعلية للوصول إلى شخص آخر، شخص مثلك. أما الآن فلا أدري. الأضمّاء، وهُم يقرعون أجراسهم يكونون معًا قلبًا وقالبًا يا روب، مترابطين جميعًا، تقريبًا مثلنا عندما نمارس الحبّ. إنهم يحبّون بعضهم بعضًا أيضًا، ويهيمون بنا حبًا. لقد شعرت... لا أدري. لكن جوستافسن يحبّني بقدر ما تحبّني أنت. لا، بل يحبّني أكثر.

قالت هذا بوجه ممتقع وعينين متسعتين تائهتين وحيدتين. وأنا، شعرت أنا

ببرودة مباغتة، كأنما تهبُّ في روحي ريح قارسة. لم أردَّ بشيء. فقط نظرت إليها، وبلّلت شفتيّ، ونزفت.

وأظنُّها رأت الجرح في نظرتي، أو قرأته، لأنها جذبت يدي ومسّدتها قائلة: «أوه، روب، أرجوك. لا أقصد أن أجرحك. المسألة ليست أنت، بل نحن جميعًا. ما الذي نملكه نحن مقارنةً بهم؟».

- لا أعرف عمَّ تتكلمين يا ليا.

لحظتها أراد نصفي البكاء، في حين أراد نصفي الآخر أن أرفع عقيرتي بالصّياح، إلا أنني كبثُّ كلا النّصفين وحافظت على ثبات صوتي.

أما في داخلي فلم أكن ثابتًا، لم أكن ثابتًا بالمرة.

- هل تحبّني يا روب؟

مرّةً أخرى التّساؤل.

- نعم!

بعنف. إنه تحدٍّ.

قالت: «ما الذي يعنيه هذا؟».

- تعرفين ما يعنيه. تبًا يا ليا، فكّري! تذكّري كل ما حظينا به، كل ما تقاسمناه. هذا هو الحبُّ يا ليا، إنه الحبُّ. نحن المحظوظون، أتذكرين؟ لقد قلتِ هذا بنفسكِ. العاديّون لا يملكون إلا لمسة وصوتًا ثم يعودون إلى ظلمتهم قادرين بالكاد على العثور بعضهم على بعض. إنهم وحدهم، دائمًا وحدهم، يتلمّسون

طريقهم، يحاولون مرارًا وتكرارًا أن يتسلّقوا جدران عزلتهم، ومرارًا وتكرارًا يفشلون. أما نحن فلا. نحن وجدنا السَّبيل، ويعرف كلانا الآخر بقدر ما يستطيع أي إنسان. لا يوجد شيء لا يمكنني أن أخبركِ به أو أشاركِكِ إياه. قلت هذا من قبل وتعلمين أنه صحيح، بإمكانكِ قراءته فيّ. تبًّا! هذا هو الحبّ، أليس كذلك؟!

بصوت حائر مثقل بالحزن قالت: «لا أدري»، وبلا صوت، ولا حتى نشيج، أجهشت بالبكاء، وفيما سالت الدُّموع في قنوات الوحدة على وجنتيها، تكلّمت. «لعلّ هذا هو الحبُّ. لطالما حسبت ذلك. أما الآن فلا أعرف. لو أن ما بيننا حبٌّ فما الذي شعرت به اليوم؟ ما الذي لمسته وشاركت فيه؟ أوه، روب، أنا أيضًا أحبُّك. أنت تعرف هذا. إنني أحاول مشاركتك الأشياء. أريد أن أشاركك ما قرأته وما أشعرني به، لكنني لا أقدر. إننا مقطوعان. لا يمكنني أن أُفهِمك. أنا هنا وأنت هناك، وبإمكاننا أن نتلامس ونمارس الحبّ ونتكلم، لكننا سنبقى منفصلَين. هل ترى؟ هل ترى؟ إنني وحدي الآن، واليوم لم أكن كذلك!».

قلت فجأةً: «لستِ وحدكِ! أنا هنا!»، وأطبقت على يدها مضيقًا: «أنا هنا. أتحسّين؟ أتسمعين؟ لستِ وحدكِ!».

هزّت رأسها وانهمرت دموعها وهي تقول: «أنت لا تفهم. هل ترى؟ ولا أملك وسيلة لأجعلك تفهم. قلت إن كلينا يعرف الآخر بقدر ما يستطيع أي إنسان، وأنت محق. ولكن ما مبلغ معرفة بعض النّاس ببعض؟ أليسوا معزولين جميعًا في الحقيقة؟ كل منهم وحده في كون شاسع خالٍ مظلم؟ إننا نخدع أنفسنا لا أكثر حينما نحسب أن أحدًا آخر معنا. في النّهاية، في النّهاية الموحشة الباردة، لا يوجد إلانا، بمفردنا في السّواد. أأنت هناك حقًّا يا روب؟ أنّى لي أن أعرف؟ هل ستموت معي يا روب؟ هل سنكون معًا عندئذ؟ أنحن معًا الآن؟ تقول إننا أسعد

حظًا من العاديِّين. أنا أيضًا قلتها. ليس لديهم إلا لمسة وصوت، أليس كذلك؟ كم مرة ردَّدت هذا الاقتباس؟ ولكن ما الذي لدينا نحن؟ لمسة وصوتان ربما. لم يعُد ذلك يكفي. إنني خائفة، فجأةً خائفة».

بدأت ليا تنشج، وبالغريزة مددت إليها يد الحنان؛ احتويتها بين ذراعيّ وملَّست عليها، واستلقينا على الفراش معًا وانتحبت على صدري. قرأتها قراءة وجيزة، ووجدت فيها مشاعر الألم والوحدة المباغتة والجوع، جميعها دائر في دوَّامات عاصفةٍ عقليَّة تزداد اكفهرارًا. ومع أني لمستها وتحسَّستها وهمست لها -مرَّة تلو مرَّة- أن كل شيء سيكون بخير، أنني هنا، أنها ليست وحدها، علمت أن هذا لن يكفي. فجأةً أمست بيننا فجوة، هوَّة مظلمة عظيمة اتسعت واتسعت، ولم أعرف كيف أعبرها. وليا، حبيبتي ليا، تبكي، ومحتاجة إليّ، وأنا إليها، وما من سبيل للوصول.

وأدركت أنني أبكي أيضًا.

ساعةً على الأقل تعانقنا ودموعنا تسيل صامتةً، على أن الدُّموع نضبت أخيرًا، وقد ضمَّت ليا نفسها إليّ بشدة جعلتني أتنفَّس بصعوبة، وتمسَّكتُ بها بالشدة نفسها.

ثم همسَت: «روب، قلت... قلت إن كلينا يعرف الآخر حقَّ المعرفة، كثيرًا قلتها. وتقول أحيانًا إنني الشَّخص الصَّحيح لك، إنني مثالية».

أومأت برأسي راغبًا في التَّصديق، وقلت: «نعم، أنتِ كذلك».

- لا.

لفظت الكلمة مخنوقةً، تُرغِمها على الخروج إلى الهواء، تقاتل نفسها لتنطقها. «غير صحيح! إنني أقرؤك، نعم، أستطيع سماع الكلمات تتخبَّط في رأسك فيما تُكوِّن جملة من قبل أن تقولها، وأستمع إلى توبيخك نفسك عندما ترتكب فعلًا أحمق، وأرى الذِّكريات، بعض الذِّكريات، وأعيشها معك. لكن كل هذا على السَّطح يا روب، فوق القمَّة. إن تحته مزيدًا، مزيدًا منك؛ أنصاف أفكار منساقة لا يمكنني التقاطها بالضَّبط، مشاعر لا أجد لها اسمًا، عواطف تكبتها، ذكريات لا تعي أنت نفسك وجودها. أحيانًا أتمكَّن من الوصول إلى ذلك المستوى، أحيانًا، إذا كافحت حقًّا، إذا استنزفت نفسي إلى درجة الإنهاك. لكن حين أصل إليه أجدني أعرف - أعرف حقًّا- أن تحت ذلك المستوى مستوى آخر، ومستويات أخرى وأخرى، وهكذا دواليك، أعمق فأعمق، ولا أستطيع بلوغها يا روب مع أنها جزء منك. أنا لا أعرفك، لا يمكنني أن أعرفك. حتى أنت لا تعرف نفسك. هل ترى؟ وأنا، هل تعرفني؟ لا، إن معرفتك بي أقل. أنت تعرف ما أخبرك به، وما أخبرك به هو الحقيقة، وإن لم تكُن كاملة ربما. وتقرأ مشاعري، مشاعري السَّطحية... ألمي إذا خبطت إصبعٌ من قدمي شيئًا، لمحة سريعة من الضِّيق، اللَّذة التي أجنيها وأنت في داخلي. أيعني ذلك أنك تعرفني؟ وماذا عمَّا لديَّ أنا من مستويات ومستويات؟ ماذا عن الأشياء التي أجهلها أنا نفسي؟ هل تعرفها أنت؟ كيف يا روب؟ كيف؟».

ثانيةً هزَّت رأسها، لفتتها الصَّغيرة الطَّريفة متى ارتبكت، وتابعت: «وتقول إنني مثالية، وإنك تحبُّني، وإنني الشَّخص الصَّحيح تمامًا لك، ولكن أأنا كذلك حقًّا؟ إنني أقرأ أفكارك يا روب! أعرف متي تريدني أن أكون مثيرة، فأكون مثيرة. أرى ما يغريك، فأفعله. أعرف متى تريدني أن ألزم الجدَّ ومتى تريدني أن أمزح، وأعرف نوع الدُّعابات التي ينبغي أن ألقيها أيضًا. ليست من النَّوع

الجارح لأنه لا يروقك أن تُجرَح أو ترى النَّاس ينجرحون. أنت تضحك مع النَّاس لا منهم، وأضحك معك، وأحبُّك لذوقك. أعرف متى تريدني أن أتكلم ومتى أصمت، أعرف متى تريدني أن أكون نمرتك الفخور وتلپاثيَّتك الجميلة الصَّارمة، ومتى تريد فتاة صغيرة تحتمي بين ذراعيك. وأنا هذه الأشياء بالفعل يا روب، لأنك تريدني أن أكونها، لأني أحبُّك، لأني أشعر بالسُّرور في عقلك من كل شيء صحيح أفعله. لم تكن غايتي أن أفعلها بهذه الطَّريقة، لكن هذا ما حدث. لم أمانع، ولا أمانع. معظم الوقت لم يكن فعلًا واعيًا حتى. أنت أيضًا تفعل هذا. لقد قرأته فيك. لا يمكنك القراءة مثلي، فيُخطئ تخمينك أحيانًا... تتظارف وأنا أريد التَّفهم الصَّامت، أو تلعب دور الرَّجل القوي وأنا محتاجة إلى صبي أكون له بمثابة الأم. لكنك تصيب التَّخمين أحيانًا، وتحاول فعلًا، دائمًا تحاول. ولكن أهذا أنت بحق؟ أهذه أنا؟ ماذا لو لم أكُن مثالية؟ لو أني نفسي فقط بكل عيوبي والأشياء التي لا تريدني أن أبوح بها؟ هل ستحبُّني حينئذٍ؟ لا أدري. لكن جوستافسن سيحبُّني، وكامنز. أعلم هذا يقينًا يا روب. لقد رأيته. إنني أعرفهما. مستوياتهما... اختفت. إنني **أعرفهما**، وإذا عدت فبإمكاني مشاركتهما أكثر مما أستطيع مشاركتك. وهما يعرفانني، أنا الحقيقية، بأكملي على ما أظن، ويُحبَّانني. هل ترى؟ هل ترى؟!».

هل رأيت؟ لا أدري. كنت حائرًا. هل سأحبُّ ليا لو أنها «نفسها»؟ وما «نفسها»؟ فيمَ تختلف عن ليا التي أعرفها؟ حسبتُني أحبُّ ليا وسأحبُّ ليا دومًا، ولكن ماذا لو أن ليا الحقيقية ليست مثل حبيبتي ليا؟ ما الذي أحبُّه بالضَّبط؟ مفهوم الإنسان المجرد الغريب، أم اللَّحم والصَّوت والشَّخصية التي أفكر فيها باعتبارها ليا؟ لم أعرف، لم أعرف مَن ليا أو مَن أنا أو ما يعنيه كل هذا بحق الجحيم، وانتابني الخوف. ربما لم أستطِع الشُّعور بما شعرَت به بعد ظهر اليوم، إلا أنني أدركت مشاعرها الآن. كنت وحدي، ومحتاجًا إلى أحد.

ناديتها: «ليا. ليا، دعينا نحاول. ليس ضروريًا أن نستسلم. باستطاعة كلينا الوصول إلى الآخر. توجد طريقة، طريقتنا. لقد فعلناها من قبل. تعالي يا ليا، تعالي معي، تعالي إليّ».

فيما تكلّمتُ جرّدتها من ثيابها، واستجابت ليا وانضمّت يداها إلى يديّ، ولما تعرّينا بدأت أتحسّس جسدها ببطء، وهي جسدي. امتدّ كل من عقلينا نحو الآخر، امتدّا وسبرا أغوارنا على نحو لم يحدث قبلها قَطُّ، وشعرت بها تُنقّب داخل رأسي، تتعمّق وتتعمّق، تتوغّل، وفتحت لها نفسي وسلّمت كل الأسرار الصّغيرة التّافهة التي كتمتها حتى عنها، أو أني حاولت، قدّمت لها كل ما أذكره: انتصاراتي وخزيي، اللّحظات الحلوة والألم، المرّات التي جرحت فيها أحدًا والمرّات التي جرحني فيها أحد، جلسات البكاء الطّويلة بمفردي، المخاوف التي آبى الاعتراف بها، التّحيزات التي قاومتها، الأباطيل التي صارعتها عندما حان الوقت، الخطايا الصّبيانية السّخيفة. أفصحت عن كل شيء. لم أدفن شيئًا، لم أُخفِ شيئًا. أعطيت نفسي لها، لليا، لحبيبتي ليا. مُؤكّد أنها عرفتني.

وهي أيضًا سلّمت ما لديها. كان عقلها غابة جُبتها ساعيًا وراء خيوط المشاعر الرّقيقة، الخوف والاحتياج والحب فوق القمّة، والأشياء الأخفت تحت هذا، النّزوات والعواطف نصف المكتملة المتوارية في بقاع أشد عمقًا في الغابة. لست أتمتّع بموهبة ليا، فأنا أقرأ المشاعر فقط لا الأفكار، غير أنني قرأت أفكارها حينها للمرة الأولى والوحيدة، أفكارًا ألقتها عليّ لأنني لم أرَها من قبل قَطُّ. لم أستطِع بلوغ كثيرٍ منها، لكنني تحصّلت على بعضها.

وإذ انفتح لي عقلها حذا جسدها حذوه، دخلتُها وتحركنا معًا، جسدانا جسد،

عقلانا مضفوران، أقرب ما يقدر عليه البشر إلى الانضمام. شعرت باللَّذة تغمرني بأمواج بهية عارمة، لذَّتي ولذَّتها، كلتاهما تضيف إلى الأخرى، وطيلة أبديةٍ ركبت قمَّة الموج وهي تدنو من ساحل ناءٍ بعيد، وأخيرًا إذ تكسَّرت على الشَّاطئ بلغنا الذُّروة معًا، وللحظة -لحظة صغيرة زائلة- لم أميِّز رعشتي من رعشتها.

ثم مرَّت اللَّحظة، وتمدَّدنا على الفِراش بجسدين متشابكين في ضوء النُّجوم.

لكنه ليس الفِراش، بل الشَّاطئ، الشَّاطئ الأسود المستوي، ولا نجوم في السَّماء من فوقنا. مسَّني خاطر، خاطر شارد لم يأتِ مني، بل من ليا. كانت تفكر أننا في سهل، ورأيت أنها على حق. المياه التي حملتنا إلى هنا اختفت، انحسرت، ولم يتبقَّ إلا سواد منبسط شاسع يمتد في كل اتجاه، وفي كلا الأفقين تتحرك أجسام معتمة تثير التَّوجس.

فكَّرت ليانا: ونحن هنا كأننا في سهلٍ مدلهم.

وفجأةً أدركت كنه تلك الأجسام، وأي قصيدة كانت تقرأ.

ونمنا.

***

استيقظت وحيدًا.

الغرفة مظلمة، وليا متكورة على نفسها في نومها على جانب الفراش الآخر. لم تزَل السَّاعة متأخرة، وقدَّرت أنها قرابة الفجر، وإن لم أستطِع التَّأكد مع الاضطراب الذي اعتراني.

نهضت وارتديت ثيابي في صمت. عليّ أن أتمشّى في مكانٍ ما وأفكر، أن أتدبَّر الأمور، ولكن أين؟

وجدت في جيبي مفتاحًا. لمسته وأنا ألبس قميصي، فتذكَّرت.

مكتب ڤالكارنجي. سأجده موصدًا ومهجورًا في هذه الساعة من اللّيل، وقد يساعدني المنظر على التّفكير.

خرجت واتجهت إلى الأنابيب، وانطلقت إلى أعلى وأعلى وأعلى نحو قمَّة البرج، نحو ذُروة تحدي الإنسان الفولاذي للإشكين. لا إضاءة في المكتب، والأثاث أشكال مظلمة بين الظّلال، وليس في المشهد إلا ضوء النُّجوم. شكيا أقرب إلى مركز المجرة من الأرض القديمة أو بالدَر، وعليه فالنُّجوم هنا مظلَّة نارية في سماء اللّيل؛ بعضها قريب جدًا، ويتّقد كشعلات حمراء وأخرى بيضاء مُزرقَّة في الحُلكة المذهلة بالأعلى. في مكتب ڤالكارنجي الجدران كلها من زجاج، فذهبت إلى أحدها ورنوت ببصري إلى الخارج. لم أكن أفكر، بل أشعر فحسب، وما شعرت به هو البرد والضّياع والضّآلة.

ثم إنني سمعت صوتًا من خلفي يلقي التّحية، ومن فرط خفوته بلغ مسامعي بالكاد.

التفتُّ عن النّافذة، إلا أن مزيدًا من النُّجوم انقضَّ عليّ من الجدران الأخرى القصية، ورأيت لوري بلاكبرن جالسةً على أحد المقاعد الواطئة، يداريها الظّلام.

حيّيتها، وقلت: «لم أقصد التّطفل. حسبت أني لن أجد أحدًا هنا».

ابتسمَت، ابتسامتها إشراقة في وجه مشرق، لكنها خلت تمامًا من المرح. كان

شعرها منسدلًا في موجات كستنائية جارفة متجاوزًا كتفيها، وترتدي غلالة رقيقة طويلة كشفت لي طيّاتها عن منحنيات جسدها النّاعمة، لكن لوري لم تحاول ستر نفسها.

ردّت: «أصعد إلى هنا كثيرًا، ليلًا عادةً، عندما ينام دينو. إنه مكان مناسب للتّفكير».

قلت مبتسمًا: «نعم، هذا ما خطر لي أيضًا».

- النّجوم جميلة، أليس كذلك؟

- بلى.

- هذا رأيي. إنني...

تردّد، ثم إنها نهضت واتجهت نحوي، وسألتني: «هل تحبُّ ليا؟».

سؤال كالمطرقة، وفي توقيت شنيع، ولكن أظنّني أحسنت استقباله وعقلي لا يزال مشغولًا بحواري مع ليا. أجبت: «نعم، جدًا. لماذا؟».

وقفَت قُربي، تنظر إلى وجهي وتتجاوزني ببصرها رامقةً النُّجوم. «لا أدري. أحيانًا تتملّكني تساؤلات عن الحب. إنني أحبُّ دينو كما تعلم. لقد وصل منذ شهرين فقط، أي إننا لم نتعرّف منذ مدّة طويلة، لكنني أحبّه بحق. لم أعرف قَطُّ أحدًا مثله. إنه دمث، ويراعي مشاعر الآخرين، ويجيد فعل كل ما يفعله. لم أرَه مرة يفشل في شيء جرّبه، ومع ذلك لا يبدو مدفوعًا نحو غايةٍ ما كبعض الرّجال. إنه يربح بمنتهى الشهولة، وإيمانه بنفسه بالغ، وهذا جذّاب. لقد أعطاني أي شيء يمكنني أن أطلبه، كل شيء».

قرأتها فرصدت حبَّها وقلقها، وقلت مُخمّنًا: «باستثناء نفسه».

رمقتني جافلةً، ثم ابتسمت وقالت: «نسيت. إنك موهوب، وتعرف هذا بالطّبع. أنت مصيب. لا أعرف ما يقلقني، لكنني أقلق. دينو مثالي حقًا. لقد حكيت له... كل شيء، كل شيء عني وعن حياتي، وينصت هو لي ويتفهّم. إنه مُتقبّل دومًا، وحينما أحتاج إليه أجده، ولكن...».

- كل هذا في اتجاه واحد.

قلتها تقريرًا، فأنا أعرف.

وافقتني بإيماءة من رأسها، وواصلت: «ليست المسألة أنه يكتم عني أسرارًا، لأنه لا يفعل ذلك، بل يجيب عن أي سؤال ألقيه. غير أنها إجابات لا تعني شيئًا. أسأله عمًا يخيفه فيجيبني بكلام مُرسَل ويجعلني أصدقه. إنه عقلاني للغاية، هادئ للغاية، لا يغضب أبدًا ولم يغضب قَطُّ. لقد سألته. ولا يكره النّاس، إذ يرى الكراهية شيئًا سيئًا. ولم يشعر بالألم يومًا، أو هكذا يقول، أعني الألم العاطفي، ورغم ذلك يفهمني عندما أتكلم عن حياتي. في مرّة قال إن أكبر عيوبه الكسل، لكنه ليس كسولًا بالمرّة، وأنا أعلم هذا. أهو مثالي إلى تلك الدّرجة حقًا؟ يقول لي إنه واثق بنفسه دائمًا لأنه يعلم يقينًا أنه بارع، لكنه يبتسم حين يقولها، فلا يمكنني مجرد اتهامه بالغرور. يقول إنه مؤمن بالله، لكنه لا يتكلم عنه إطلاقًا. إذا حاولت أن تكلمه بجدية فسيُصغي بصبر، أو يمازحك، أو يغير مسار الحديث. يقول إنه يحبّني، ولكن...».

أومأت برأسي عالمًا ما هو آتٍ.

وأتى. نظرت إليّ لوري والتّوسل في عينيها، وقالت: «أنت موهوب. لقد قرأته، أليس كذلك؟ هل تعرفه؟ أخبرني، أرجوك أخبرني».

كنت أقرؤها، ورأيت قدر احتياجها إلى المعرفة، قدر قلقها وخوفها وقدر حبّها. لم أستطِع الكذب عليها، لكنني وجدت إعطاءها الإجابة التي اضطُرِرت إلى إعطائها عسيرًا.

بتؤدة وحذر، معايرًا كلماتي كأنها سوائل ثمينة، قلت: «لقد قرأته، وأنتِ، قرأتكِ أيضًا، ورأيت حبّكِ في تلك اللّيلة الأولى عندما أكلنا معًا».

- ودينو؟

تعثّر الكلام في حلقي وأنا أجيب: «إنه... طريف، كما قالت ليا ذات مرّة. بإمكاني قراءة مشاعره السّطحية بسهولة، ولكن تحت ذلك لا شيء. إنه متحفظ للغاية، يحيط نفسه بالأسوار، كأن مشاعره الوحيدة هي تلك التي... يسمح لنفسه بالشُّعور بها. لقد شعرت بثقته واستمتاعه، وشعرت بقلق لديه أيضًا، أما الخوف الحقيقي فلا. دينو يحمل نحوكِ عاطفة قوية، ويرغب بشدّة في حمايتكِ. إنه يستمتع بالشُّعور بحماية غيره».

- أهذا كل شيء؟

سؤال مُفعَم بالأمل إلى درجةٍ آلمتني.

- للأسف. الأسوار تُطوّقه يا لوري. إنه محتاج إلى نفسه، إلى نفسه فقط. لو أن في نفسه حبًا فهو قابع وراء تلك الأسوار، مُخبّأ، لا أستطيع قراءته. إنه يُقدّرك كثيرًا يا لوري، لكن الحبّ... مختلف. إنه أقوى وأشد شططًا ويأتي كالفيضانات

الجامحة، ودينو ليس هكذا، على الأقل في الخارج حيث يمكنني القراءة.

قالت: «مغلق، إنه مغلق عني. فتحت له نفسي بالكامل، لكنه لم يفعل. لقد خشيت دومًا... حتى وهو معي شعرت أحيانًا أنه ليس معي على الإطلاق.

تنهَّدَت، وقرأتُ يأسها ووحدتها الفيّاضة، ولم أدرِ ماذا أفعل، فقلت لها كلامًا عقيمًا: «ابكي إذا أردتِ. البكاء يساعد أحيانًا. أعلم هذا، فقد بكيت بما فيه الكفاية في حياتي».

لم تبكِ، بل رفعت ناظريها إليّ وضحكت بخفّة قائلة: «لا، لا أقدر. دينو علّمني ألا أبكي أبدًا. قال إن الدُّموع لا تحلُّ شيئًا».

فلسفة حزينة. قد لا تحلُّ الدُّموع شيئًا، إلا أنها جزء من إنسانية الإنسان. أردت أن أخبرها بهذا، وبدلًا من ذلك ابتسمت لها.

وردّت عليّ بابتسامة، وحنت رأسها جانبًا، وبصوت غريب المرح قالت فجأةً: «أنت تبكي! طريف هذا. إنه -بشكل ما- اعتراف أكبر ممّا نلت من دينو على الإطلاق. أشكرك يا روب، أشكرك».

ووقفت لوري على أطراف أصابعها ونظرت إليّ بترقُّب، وقرأت ما تترقَّبه، فأخذتها وقبّلتها، وألصقَت جسدها بجسدي بقوة، وطوال الوقت فكّرت في ليا قائلًا لنفسي إنها لن تمانع، إنها ستفخر بي، إنها ستتفهَّم.

بعدها بقيت مستيقظًا في المكتب بمفردي لأتفرّج على بزوغ الفجر. كنت مُستنزَفًا، ومع ذلك أشعر بالقناعة. شاهدت الضّوء الزّاحف على الأفق يطرد الظّلال، وعلى حين غرّة بدت جميع المخاوف التي وجدتها مُهدِّدةً في اللّيل

سخيفة مبالغًا فيها، وفكّرت أنني وليا عبرنا الهوّة التي بيننا، أيًا كان الأمر فقد تولّيناه، واليوم سنتولّى أمر الجريشكة بالشهولة نفسها معًا.

ولما رجعت إلى غرفتنا وجدتُ ليا رحلت.

***

كان ڤالكارنجي يقول: «عثرنا على العربة الهوائية في وسط بلدة الإشكين». تكلم بصوت هادئ مُطَمئِن، وأخبرني صوته -بلا كلمات- بأن لا داعي للقلق. «لقد أرسلت رجالًا للبحث عنها، لكن بلدة الإشكين كبيرة. ألديك فكرة عن المكان الذي لعلّها ذهبت إليه؟».

أجبت ببلادة: «لا، لا فكرة حقًا. ربما ذهبَت لرؤية مزيد من الأضمّاء. لقد بدت... شبه مهووسة بهم. لا أدري».

- حسن، إن لدينا قوّة شُرطة ماهرة. سنعثر عليها، أنا واثق، ولكن قد يستغرق هذا وقتًا. هل تشاجرتما؟

- نعم. لا. نوعًا ما، لكنه لم يكن شجارًا حقيقيًا. كان شيئًا غريبًا.

علّق: «مفهوم»، إلا أنه لم يفهم فعلًا. «لوري أخبرتني بأنك صعدت إلى هنا البارحة، وحدك».

- نعم. احتجت إلى وقت لأفكر.

قال ڤالكارنجي: «ليكن. لنقُل إن ليا استيقظت وقرّرت أنها تريد التّفكير أيضًا. أنت صعدت إلى هنا، وهي ذهبت في جولة بالعربة. قد لا تتعدّى المسألة رغبتها

٢٧٠٨١٥٤٢٠٦
Telegram:@mbooks90

في يوم إجازة للتجوال في أنحاء بلدة الإشكين. لقد فعلَت شيئًا كهذا أمس، أليس كذلك؟

- بلى.

- هذا ما تفعله ثانية إذًا. لا مشكلة. على الأرجح ستعود قبل العشاء بفترة كافية.

قالها وابتسم.

- لكن لماذا غادرَت دون أن تخبرني أو تترك ملاحظة أو أي شيء؟!

- لا أعرف. لا يهمُّ.

ألا يهمُّ؟ ألا يهمُّ حقًّا؟ جلست على الكرسي مُتجهِّمًا، رأسي بين يديَّ ويرشح مني العرق. فجأةً غشيني خوف جمٌّ ممَّا أجهله، وقلت لنفسي إنه ما وجبَ أن أتركها بمفردها إطلاقًا. بينما أنا بالأعلى مع لوري، استيقظت ليانا وحدها في غرفة مظلمة و... و... وماذا؟ ورحلت.

قال ڤالكارنجي: «لكن في هذه الأثناء أمامنا عمل. كل شيء جاهز للرِّحلة إلى الكهوف».

رفعت عينيَّ إليه قائلًا باستنكار: «الكهوف؟ لا يمكنني الذَّهاب إلى هناك، ليس الآن وليس وحدي».

أطلق زفرة حانقة مبالغًا فيها من باب التَّأثير، وقال: «أوه، بحقِّك يا روب. إنها ليست نهاية العالم. ليا ستكون بخير. لقد بدت لي فتاة عاقلة تمامًا، وأنا واثق

باستطاعتها العناية بنفسها، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي إيجابًا.

- وفي هذه الأثناء سنغطي الكهوف. ما زلت أريد تفسيرًا لهذه المسألة.

مُحتجًا قلت: «لن يفيدنا هذا بشيء في غياب ليا. إنها هي صاحبة الموهبة الكبرى، أمّا أنا... أنا أقرأ المشاعر فقط، لا أستطيع التّوغل مثلها. لن أحلّ لك شيئًا».

هزّ كتفيه قائلًا: «ربما، لكننا سنذهب. ليس لدينا ما نخسره. يمكننا دومًا القيام بزيارة ثانية بعد عودة ليا. كما أن من المُفترَض أن ينفعك هذا، يشغل عقلك عن ذلك الأمر الآخر. لا شيء يمكنك أن تفعله لليا الآن. لقد أرسلت كل رجل متاح للبحث عنها، وإن لم يعثروا عليها فمُؤكّد أنك لن تفعل. لا معنى إذًا للإسهاب في التّفكير. عُد إلى العمل، اشغل نفسك»، ودار متجهًا نحو الأنبوب، وأضاف: «هلمّ. في انتظارنا عربة هوائية. نلس أيضًا سيذهب».

على مضضٍ نهضت. لم أكن في مزاج للتّفكر في مشكلات الإشكين، لكن حجج ڤالكارنجي بدت معقولةً إلى حدّ ما، علاوةً على أنه استأجرني أنا وليانا، ولم تزَل علينا له التزامات. يمكنني أن أحاول على أي حال.

في الطّريق جلس ڤالكارنجي في مقدمة العربة مع السّائق، وهو رقيب شرطة ضخم الجثة له وجه منحوت من الجرانيت. هذه المرة اختار عربة شرطة لنتابع البحث عن ليا. جلست على المقعد الخلفي مع جورلاي، الذي غطّى حجرَينا بخارطةٍ كبيرة وراح يحدثني عن كهوف الاتّحاد الأخير.

أخبرَني: «النَّظرية أن الكهوف هي موطن الجريشكة الأصلي. إنها صحيحة غالبًا، فهي منطقية. الجريشكة أكبر حجمًا كثيرًا هناك، سترى. الكهوف منتشرة في التِّلال كلها، بعيدًا عن قطاعنا من بلدة الإشكين، في منطقة يزداد فيها الرِّيف برِّيةً. سلسلة كهوف تقليدية شبيهة بقُرص العسل. الجريشكة فيها جميعًا أيضًا، أو هكذا سمعت. لقد دخلت بعضها بنفسي، والجريشكة في كل منها بلا استثناء، ولذا أصدق ما يقولونه عن البقية. المدينة، المدينة المُقدَّسة، بُنِيت بسبب الكهوف على الأرجح. الإشكين ينزحون إليها من جميع أنحاء القارَّة من أجل الاتِّحاد الأخير. هنا، ها هي ذي منطقة الكهوف»، وأخرج جورلاي قلمًا ورسم دائرة كبيرة بالأحمر قرب مركز الخريطة، غير أنها لم تعنِ لي شيئًا. أصابتني الخريطة بالإحباط، فلم أدرك أن مدينة الإشكين مهولة المساحة إلى ذلك الحد. كيف يمكنهم العثور على أحد لا يريد أن يُعثَر عليه؟

نظر ڤالكارنجي وراءه من المقعد الأمامي قائلًا: «الكهف الذي سنذهب إليه كبير قياسًا على مساحات تلك الأماكن. لقد دخلته من قبل. عليك أن تفهم أن الاتِّحاد الأخير لا يتضمَّن أي رسميَّات. الإشكين يختارون كهفًا فحسب ويدخلونه ويستلقون فوق الجريشكة، ويستخدمون أنسب مدخل لهم. بعض المداخل لا يتعدَّى أنابيب المجاري حجمًا، لكن إذا مضيت مسافة كافية فالنَّظرية تقول إنك ستلاقي جريشكة مستقرَّة في الظَّلام وتنبض. أكبر الكهوف مُضاء بالمشاعل مثل القاعة الكبرى، لكنها مجرد رتوش لا تلعب أي دور حقيقي في الاتِّحاد».

علَّقت: «أفترض إذًا أننا ذاهبون إلى أحد هذه الكهوف الكبيرة؟».

أومأ ڤالكارنجي برأسه، وقال: «بالضَّبط. خطر لي أنكما سترغبان في رؤية شكل الجريشكة البالغة. المنظر ليس سارًّا، لكنه تعليمي. سنحتاج إلى إضاءة».

استأنف جورلاي حكيه، إلا أنني تجاهلته، فقد ارتأيت أني أعرف ما فيه الكفاية عن الإشكين والجريشكة، كما أني لم أزَل أشعر بالقلق على ليانا. بعد فترة استرخى جورلاي وقضينا باقي الرِّحلة في صمت.

غطَّينا مساحة أوسع كثيرًا من ذي قبل، وحتى البرج، صرحنا الفولاذي البرَّاق، ابتلعته التِّلال من ورائنا.

ازدادت التَّضاريس وعورةً وامتلأت بالصُّخور والحشائش المفرطة النُّمو، وارتفعت التِّلال أعلى وأضرى، لكن القباب استمرَّت واستمرَّت واستمرَّت، والإشكين في كل مكان. فكَّرت أن ليا قد تكون بالأسفل، ضائعةً وسط حشود بالملايين. عمَّ تبحث؟ فيمَ تفكر؟

أخيرًا هبطنا في وادٍ مُشجَّر بين تلَّين عظيمين مُرصَّعين بالصَّخر. حتى هنا يعيش الإشكين، ترتفع قبابهم القرميدية الحمراء من بين الشُّجيرات الكثيفة وسط الأشجار القصيرة. لم أجد عُسرًا في ملاحظة الكهف الذي يقع على أحد المنحدرات في منتصف الطَّريق إلى قمَّة التَّل، فجوة مظلمة في وجه الصَّخر يقود إليها طريق متعرج مغبَّر.

حططنا في الوادي وبدأنا صعود الطَّريق. نهب جورلاي المسافة بخطوات واسعة خرقاء، فيما تحرك ڤالكارنجي برشاقة سلسة لا تكلُّ، وتقدَّم الشُّرطي بحركة ثقيلة بليدة. المتخلف عن الرَّكب أنا، وقد جررت نفسي إلى أعلى جرًّا، ولدى وصولنا إلى مدخل الكهف كنت شبه عاجز عن التقاط أنفاسي.

لو أني توقَّعت رسوم كهوف أو مذبحًا أو معبدًا طبيعيًا فخيبة الأمل التي

أصابَتني محزنة. الكهف تقليدي؛ جدرانه حجرية مُبتلّة وسقفه واطئ وهواؤه بارد رطب، وأفتر حرارة من أغلب شكيا وأقل غبارًا، لكن هذا كل ما فيه تقريبًا. بين الصُّخور ممرٌّ طويل ملتف، يتسع كفايةً لمشي أربعتنا متجاورين، ولو أنه منخفض إلى درجة أن جورلاي اضطُرَّ إلى الانحناء. على الجدران ثُبِّتت مشاعل بينها مسافات منتظمة، غير أن واحدًا من كل أربعة تقريبًا مُوقَد، وينبعث منها دخان زيتي بدا كأنه يلتصق بقمّة الكهف وينجرف إلى الأعماق المنتظرة أمامنا. خامرني تساؤل عن كنه ما يمتصُّ الدُّخانَ إلى الدّاخل.

بعد نحو عشر دقائق من المشي، معظمها على أرض منحدرة أحسست بوجودها بصعوبة، أفضى بنا الممرُّ إلى قاعة مرتفعة ساطعة الإضاءة، سقفها حجري مُقنطر يُلطّخه السُّخام الأسود من دخان المشاعل.

وفي القاعة تستقرُّ الجريشكة.

لونها أحمر باهت مائل إلى البنّي، كالدّماء الجافّة لا القرمزي الزّاهي شبه الشفّاف المُميّز للمخلوقات الصّغيرة الملتصقة بجماجم الأضمّاء، وفيها رُقع من الأسود أيضًا، مثل حروق أو بُقع سِناج في الجسم الجسيم. بالكاد استطعت رؤية طرف الكهف البعيد، فالجريشكة ضخمة للغاية، شاهقة فوقنا حتى إن بينها وبين السّقف شقًّا رفيعًا لا أكثر، لكنها تنحدر فجأةً في منتصف القاعة مثل تلٍّ هلامي هائل، وتنتهي بعد عشرين قدمًا كاملة من حيث وقفنا.

وبيننا وبين كتلتها العملاقة غابة من الخيوط المتدلية، شبكة حية من نسيج الجريشكة تكاد تلمس وجوهنا.

وكانت تنبض، تنبض ككائن حي واحد. حتى الخيوط جزء من الخفقات

المنتظمة؛ تنبسط ثم تنقبض، تتحرك على إيقاع واحد متوحدةً مع الجريشكة العظيمة خلفها.

اضطربت معدتي، لكن تأثُّرًا لم يبدُ على رفاقي. لقد رأوها من قبل.

قال ڤالكارنجي مضيئًا كشّافًا جلبه لتعزيز ضوء المشاعل: «تعالَ». أضفى الضّوء المُتلوّي حول الشّبكة النّابضة انطباعًا وهميًا بأني في غابة مسكونة عجيبة، ودخل ڤالكارنجي هذه الغابة مُحرّكًا ضوءه ومُزيحًا أنسجة الجريشكة جانبًا.

تبعه جورلاي، لكنني نكصت، فنظر ڤالكارنجي وراءه وقال مبتسمًا: «لا تقلق. الجريشكة تستغرق ساعات حتى تلصق نفسها، وإزالتها سهلة. لن تقبض عليك إذا تعثّرت وارتطمت بها».

لملمت شجاعتي ومددت يدي ولمست أحد الخيوط الحية، لأجده ليّنًا مُبتلًا وله ملمس لزج، لكن هذا كل ما في الأمر. انحلّت الأنسجة بسهولة، ومشيت عبرها مادًّا يدي أمامي، ألوي خيوط الشّبكة وأُفككها لأفسح لنفسي طريقًا، ومن ورائي سار الشُرطي بصمت.

ثم وقفنا على طرف الشّبكة الآخر، عند قدم الجريشكة العظيمة.

تفحّصها ڤالكارنجي لحظةً، ثم أشار بكشّافه قائلًا: «انظر. الاتّحاد الأخير».

ونظرت. غمر شعاع الكشّاف واحدة من البُقع الدّاكنة بِبركة من الضّوء، فبدت كشائبة في الجسم المحمر الضّخم. أمعنت النّظر، وفي الشّائبة أبصرت رأسًا، أبصرته في منتصف البقعة الدّاكنة، لا يلوح منه إلا الوجه، والوجه مُغطّى بغشاء

رقيق ضارب إلى الحمرة.

على أن الملامح جلية. إشكيني مسن مُتغضِّن الوجه كبير العينين، جفناه مُسبَلان الآن، لكنه يبتسم، يبتسم!

دنوت أكثر. إلى أسفل قليلًا وإلى اليمين رأيت بضع أنامل بارزة من الكتلة، لكن هذا كل شيء. معظم الجسد اختفى بالفعل، غاص في الجريشكة، ذاب أو يذوب. الإشكيني العجوز ميت، والطُّفيل يهضم جثته.

كان ڤالكارنجي يقول وهو يحرك ضوء كشَّافه كالمؤشر: «كل بقعة داكنة تدلُّ على اتِّحاد حدث في الآونة الأخيرة. البُقع تتلاشى بمرور الزَّمن بالطَّبع. الجريشكة تنمو بانتظام، وفي غضون مئة عام ستملأ هذه القاعة وتبدأ في صعود الممر».

في تلك اللَّحظة سمعنا من خلفنا حفيف أحدٍ يتحرك، فنظرت ورائي. شخص آخر آتٍ عبر الشَّبكة.

وسرعان ما بلغتنا، وابتسمت. امرأة إشكينية عجوز، عارية ويتهدَّل ثدياها متجاوزَين خصرها.

ضميمة طبعًا، فجريشكتها تكسو جُلَّ رأسها وتتدلَّى أسفل ثدييها، وقد بدت محتفظةً بلونها الزَّاهي شبه الشفَّاف بسبب الوقت الذي قضته في الشَّمس، أي إن بإمكانك أن تنظر من خلالها فتراها تأكل جلد ظهر المرأة.

قال جورلاي: «مُرشَّحة للاتِّحاد الأخير».

أضاف ڤالكارنجي بنبرةٍ تهكُّمية خفيضة: «إنه كهف ذائع الصِّيت».

لم تكلمنا المرأة ولا كلمناها، ومبتسمةً مرّت بنا واستلقت فوق الجريشكة.

وبدت الجريشكة الصّغيرة، تلك التي تمتطي ظهر المرأة، كأنما تتحلّل على إثر الملامسة، تذوب ذوبانًا في مخلوق الكهف العظيم، لتنضمّ الإشكينية إلى الجريشكة وتصير الاثنتان واحدًا.

وبعد ذلك لا شيء. فقط أسبلت المرأة جفنيها وتمدّدت لتبدو كالنّائمة.

سألت: «ماذا يحدث؟».

أجاب ڤالكارنجي: «الاتّحاد. ستمرّ ساعة قبل أن تلحظ شيئًا، لكن الجريشكة تنغلق عليها الآن، تبتلعها. إنها استجابة لحرارة جسدها كما قيل لي. في غضون يومٍ ستندفن فيها، وخلال يومين ستكون مثله...»، وحطّ شعاع الكشّاف على الوجه نصف الذّائب أعلانا.

سألني جورلاي مقترحًا: «أيمكنك قراءتها؟ قد يُعلمنا هذا بشيء».

شاعرًا بالنّفور -ولكن أيضًا بالفضول- قلت: «ليكن».

وفتحت نفسي، وضربتني العاصفة العقليّة.

ولكن من الخطأ أن أصفها بالعاصفة العقليّة.

كانت هائلةً رهيبةً عاتيةً، حارقةً مُعميةً خانقةً، ومع ذلك مُفعَمة بالسّلام، ورقّتها أعنف من كراهية البشر. صرخَت صرخات ناعمة ونادتني كالسّيرينات واجتذبتني بإغواء، وغمرتني بأمواج قرمزية من العاطفة وسحبتني إليها. في آنٍ واحد ملأتني وأفرغتني، وسمعتُ الأجراس في مكانٍ ما تجلجل بأغنيّةٍ برُنزية

خشنة، أغنية حبٍّ واستسلام وتآزُر، أغنيّة انضمامٍ واتِّحاد لا مجال فيها للوحدة أبدًا.

***

عاصفة، عاصفة عقليّة، أجل، هكذا كانت. إلا أن مقارنة عاصفة عقلٍ تقليدية بها أشبه بمقارنة إعصارٍ بانفجارٍ نجمي، والعنف الذي هبّت به عنف الحبّ. أحبّتني تلك العاصفة العقليّة، وأرادتني، ونادتني أجراسُها وتغنّت بحبّها، ومددتُ نفسي إلى حبّها هذا ولمسته، أبتغي أن أكون معه، أبتغي رباطًا به، أبتغي ألا أعرف الوحدة ثانيةً. وفجأةً وجدتُني من جديدٍ فوق قمّة موجةٍ عظيمة، موجة من النّيران اكتنفت النّجوم إلى الأبد، وهذه المرّة علمتُ أن الموجة لن تنحسِر أبدًا، هذه المرّة لن أمسي بعدها وحدي في سهلي المدلهم.

ولكن على إثر تلك العبارة خطرت ببالي ليا.

ثم إذا بي أقاوم، أقاتله، أصارع بحر الحبّ الذي يمتصُّني امتصاصًا. ركضت، وركضت، وركضت، **وركضت**... أغلقت باب عقلي، وبمطرقةٍ سمّرت مزلاجه، وتركت العاصفة تثور وتعوي وتهوي على الباب بضرباتها وأنا أكافح لتثبيته بكل ما أملك من قوّة، ومع ذلك بدأ يعوجُّ ويتصدّع.

صرخت، وتحطّم الباب، وجلدتني العاصفة وقبضت عليّ، وابتلعتني دوّامتها وراحت تدور وتدور، وإلى النّجوم الباردة في الأعالي حلّقت، لكنها لم تعُد باردة، وتعاظمتْ وتعاظمتْ حتى صرت أنا النّجوم وصارَتني، وصرت أنا الاتّحاد، وللحظةٍ متلألئة واحدة منفردة صرت الكون ذاته.

ثم لا شيء.

***

أفقت في غرفتي بصداع يسعى لتمزيق جمجمتي. كان جورلاي جالسًا على مقعد يقرأ أحد كُتبنا، ولما تأوّهت رفع ناظريه.

وجدت حبوب الصُّداع التي أخذَتها ليا في مكانها على المنضدة المجاورة للفِراش، فأسرعت أبتلع واحدة، وبصعوبة اعتدلت جالسًا.

سألني جورلاي: «أأنت بخير؟».

أجبت وأنا أفرك جبهتي: «صداع». كانت تنبض كأنها على وشك الانفجار، أسوأ من المرّة التي أبصرتُ فيها ألم ليا. «ماذا حدث؟».

نهض قائلًا: «أخفتَنا حتى الموت. بعدما شرعت تقرأ بدأت ترتجف فجأةً، ثم خطوت إلى داخل الجريشكة اللّعينة، وصرخت. دينو والرّقيب اضطُرّا إلى جرّك إلى الخارج. كنت تمشي داخل ذلك الشّيء مباشرةً وتقدّمت حتى بلغ ركبتَيك. كنت تختلج أيضًا. غريب. دينو ضربك، أفقدك الوعي»، وهزّ رأسه واتجه نحو الباب، فسألته: «أين ستذهب؟».

- سأنام. إنك غائب عن الوعي منذ ثمان ساعات تقريبًا. دينو طلب مني أن أراقبك حتى تفيق. حسن، ها قد أفقت. والآن استرِح، وأنا أيضًا سأستريح. سنتكلم غدًا.

- أريد أن أتكلم الآن.

قال مُغلقًا باب الغرفة: «الوقت متأخر».

أصغيت إلى خطواته في طريقه إلى الخارج، وأنا واثقٌ بأني سمعت الباب الخارجي يُوصَد. واضحٌ أن أحدهم يخشى الموهوبين الذين يغادرون خلسةً في جوف اللَّيل. لكنني لم أنوِ الذَّهاب إلى أي مكان.

قمت راغبًا في شراب، ووجدت زجاجة مُبرَّدة من القِلتار. أفرغت كأسين سريعتين في جوفي، ثم أكلت وجبة خفيفة. بدأ الصُداع يخفُّ، ورجعت إلى غرفة النَّوم حيث أطفأت الأنوار ورفعت عتمة النَّوافذ الزُّجاج لتسطع النُّجوم من خلالها، ثم عدت إلى النَّوم.

***

على أني لم أنَم في الحال. أشياء كثيرة جدًّا حدثت، ولا بد أن أفكر فيها. الصُداع أولًا، الصُداع الفظيع الذي ما فتئ يحاول تمزيق جمجمتي، كذلك الذي أصاب ليا. لكن ليا لم تمرَّ بما مررتُ به... أم مرَّت؟ ليا صاحبة موهبة كبرى، أشد حساسية مني بكثير، ونطاقها أرحب. أممكن إذًا أن تلك العاصفة العقليَّة بلغت مدًى بعيدًا إلى تلك الدَّرجة قاطعةً أميالًا وأميالًا؟ في ساعةٍ متأخرة من اللَّيل فيما نام البشر والإشكين وخمدت أفكارهم؟ ربما. وربما كانت أحلامي نصف المنسية انعكاسات باهتة لما شعرَت به ليانا في اللَّيالي نفسها. غير أن أحلامي تلك سرَّتني. الاستيقاظ منها هو ما ضايقني، الاستيقاظ والعجز عن التَّذكر.

ولكن من ناحيةٍ أخرى، هل أصابني الصُداع وأنا نائم أم لدى استيقاظي؟

ما الذي حدث بحقِّ الجحيم؟ ما ذلك الشَّيء الذي نفذ إليَّ في الكهف وشدَّني

إليه؟ الجريشكة؟ لا شكّ. إنني لم أجد وقتًا لمجرد التّركيز على المرأة الإشكينية، فمؤكد إذًا أنها الجريشكة. لكن ليانا قالت إن الجريشكة لا تملك عقولًا، ولا حتى نعم-أنا-حي.

من حولي دارت أسئلة فوق أسئلة، ولم أتوصّل إلى أي إجابات. ثم بدأت أفكر في ليا، أتساءل أين هي ولِمَ تركتني. أهذا ما تعرّضت له؟ لماذا لم أفهم؟ افتقدتها، واحتجت إلى وجودها بجواري، وهي غائبة. كنت وحدي، وأعي هذا تمامًا.

ثم أدركني النّوم.

ظلمةٌ طالت، ولكن أخيرًا حلم، وأخيرًا تذكّرت. وجدتني رجعت إلى السّهل، السّهل المدلهم اللا متناهي، حيث الأجسام السّوداء البعيدة والسّماء الخالية من النّجوم، السّهل الذي ذكرته ليا مرارًا، الآتي من إحدى قصائدها المفضلة. كنت وحدي، للأبد وحدي، وعلمت هذا. إنها طبيعة الأشياء. أنا الواقع الوحيد في الكون بأسره، يستبدُّ بي البرد والجوع والخوف، والأجسام تتقدّم إليّ، لا إنسانية ولا ترحم... ولا أحد أناديه، لا أحد ألجأ إليه، لا أحد يسمع صراخي. لم يكن أحد قَطُّ ولن يكون أبدًا.

ثم جاءتني ليا.

هبطت طافيةً في الهواء من السّماء عديمة النّجوم، تبدو شاحبة نحيلة هشّة، ووقفت إلى جانبي في السّهل.

أزاحت شعرها بيدها، ونظرت إليّ بعينيَن واسعتين تتألّقان، وابتسمَت.

وعلمت أنه ليس حلمًا. إنها معي بوسيلة ما. وهكذا تكلمنا.

- أهلًا يا روب.

- ليا؟ أهلًا يا ليا. أين أنتِ؟ لقد تركتِني.

- أنا آسفة. كان يجب أن أذهب. أنت تفهم يا روب، يجب أن تفهم. لم أعُد أريد البقاء هنا أبدًا في هذا المكان، هذا المكان الشّنيع. كنت لأبقى لو استطعت يا روب. البشر هنا دائمًا، ولكن للحظات عابرة.

- لمسة وصوت؟

- أجل يا روب. ثم الظّلام من جديد، وصمت، والسّهل المدلهم.

- تخلطين بين قصيدتين مختلفتين يا ليا. لا بأس، إنك أعلم بهما مني. ولكن ألم تغفلي شيئًا؟ الجزء السّابق: «آهٍ يا حبيبتي، فليُخلِص كلانا للآخر...».

- أوه، روب.

- أين أنتِ؟

- أنا ... في كل مكان. لكن غالبًا في كهف. كنت مستعدّة يا روب، كنت منفتحة أكثر من البقية بالفعل، وبإمكاني تخطي التّجمع والانضمام. موهبتي جعلتني أعتاد المشاركة. لقد أخذني.

- الاتّحاد الأخير؟

- نعم.

- أوه، ليا.

- روب، أرجوك، انضمّ إلينا، انضمّ إليّ. إنها السعادة إلى أبد الآبدين، والانتماء والمشاركة والتآزر. إنني واقعة في الغرام يا روب، واقعة في غرام بليون بليون شخص، وأعرفهم جميعًا أفضل مما عرفتك يومًا، وهم يعرفونني، يعرفونني بأكملي، ويحبّونني، وهذا الحب سيدوم إلى الأبد. أنا، نحن، الاتّحاد. إنني ما زلت أنا، لكنني هُم أيضًا، هل ترى؟ وهُم أنا. الأضمّاء، قراءتهم فتّحتني، وكل ليلة ناداني الاتّحاد، لأنه أحبّني، هل ترى؟ أوه، روب، انضمّ إلينا، انضمّ إلينا. أحبّك.

- الاتّحاد. تعنين الجريشكة. إنني أحبّكِ يا ليا. عودي أرجوكِ. لا يمكن أنها امتصّتكِ بعدُ. أخبريني بمكانكِ. سآتي إليكِ.

- نعم، تعالَ إليّ، تعالَ في أي مكان يا روب. الجريشكة كلها واحد، الكهوف كلها متّصل تحت التلال، والجريشكة الصّغيرة كلها جزء من الاتّحاد. تعالَ وانضمّ إليّ، أحبّني كما تقول إنك تحبّني، انضمّ إليّ. إنك بعيد جدًا وبالكاد أستطيع بلوغك، حتى مع الاتّحاد. تعالَ وتوحّد معنا.

- لا. لن أترك نفسي لأوكَل. أرجوكِ يا ليا، أخبِريني أين أنتِ.

- مسكين يا روب. لا تقلق يا حبيبي. الجسد لا يهمّ. الجريشكة تحتاج إليه لتتغذّى، ونحن محتاجون إلى الجريشكة. لكن -أوه، روب- الاتّحاد ليس الجريشكة فقط، هل ترى؟ الجريشكة لا تهمّ. إنها بلا عقل. إنما هي مجرد رابط، الوسيط. الاتّحاد هو الإشكين أنفسهم، مليون بليون بليون إشكيني، جميع الإشكين الذين عاشوا وانضمّوا على مرّ أربعة عشر ألف سنة، جميعهم معًا يشعرون بالحبّ والانتماء، خالدون. يا للجمال يا روب. هذا أكثر مما حظينا به،

أكثر كثيرًا، ونحن كنا المحظوظين، أتذكر؟ نعم، كنا كذلك! لكن هذا أفضل.

- ليا، حبيبتي ليا، لقد أحببتكِ. ما أنتِ فيه ليس لكِ، ليس للبشر. عودي إليّ.

- ليس للبشر؟ أوه، لكنه لهم! إنه ما بحث عنه البشر دومًا، ما فتّشوا عنه، ما بكوا اشتياقًا إليه في ليالي الوحدة. إنه الحبُ يا روب، الحبُ الحقيقي، والحبُ الإنساني ما هو إلا نسخة باهتة منه، هل ترى؟

- لا.

- تعالَ يا روب، انضمّ وإلا بقيت وحدك إلى الأبد، وحدك في السّهل، لا يجعلك تستمرُ إلا صوت ولمسة. وفي النّهاية حينما يموت جسدك لن تحظى بذلك حتى. أبدية من السّواد الخاوي، السّهل يا روب، إلى ما لا نهاية. ولن أستطيع بلوغك أبدًا. ولكن ليس واجبًا أن...

- لا.

- أوه، روب. إنني أخبو. أرجوك تعالَ.

- لا. ليا، لا ترحلي. إنني أحبكِ يا ليا. لا تتركيني.

- أحبك يا روب. لقد أحببتك، حقًا أحببتك...

ورحلَت، وعدتُ وحدي في السّهل.

كانت الرّيح تهبُ من مكانٍ ما، واقتلعت مني كلمات ليانا المتلاشية وبعثرتها في فسحة الأبدية الباردة.

في الصّباح الموحش انفتح قفل الباب الخارجي، فصعدتُ إلى قمّة البرج لأجد ڤالكارنجي بمفرده في مكتبه.

سألته: «هل تؤمن بالله؟».

رفع بصره وابتسم مجيبًا باستخفاف: «بالتّأكيد».

كنت أقرؤه. ليس هذا موضوعًا فكّر فيه قَطُّ.

قلت: «أنا لا أومن به، ولا آمنَت به ليا. معظم الموهوبين ملحدون كما تعلم. قبل خمسين عامًا أُجرِيت تجربة على الأرض القديمة، نظَّمها صاحب موهبة كبرى اسمه لينل. كان لينل متدينًا مخلصًا، وخطر له أن باستعانته بالمخدّرات، وربطه عقول أصحاب أقوى المواهب في العالم بعضها ببعض، سيستطيع الوصول إلى ما سمّاه «النّعم-أنا-حي الكوني»، المعروف أيضًا باسم الله. فشلت التّجربة فشلًا ذريعًا، لكن شيئًا ما حدث رغم ذلك. جُنَّ لينل، وعاد الآخرون برؤيا عن فراغٍ سرمدي مظلم لا يبالي بشيء، عدمٍ بلا إدراك ولا هيئة ولا معنى. أصحاب موهبة آخرون شعروا بهذا، وعاديُّون أيضًا. قبل قرونٍ عاش شاعر اسمه آرنولد، كتبَ عن سهل مدلهم. القصيدة مكتوبة بواحدة من اللُّغات القديمة، لكنها تستأهل القراءة. إنها تُظهِر… الخوف على ما أظن، شيئًا أساسيًا في الإنسان، خوفًا من وجوده وحده في الكون. لعلّه مجرد خوف من الموت، ولعلّه أكثر من ذلك. لا أدري. لكنه شيء أوّلي فينا. البشر جميعهم وحيدون إلى الأبد، لكنهم لا يريدون هذا. إنهم في بحث دائم، يحاولون التّواصل، يحاولون الوصول بعضهم إلى بعض عبر العدم. بعض النّاس لا يفلح أبدًا، وبعضهم ينجح في اختراق الحواجز أحيانًا. ليا وأنا كنا محظوظَين، لكن الحظّ لا يدوم أبدًا. في النّهاية تعود وحدك في السّهل

المدلهم. هل ترى يا دينو؟ هل ترى؟!».

رسم على شفتيه ابتسامة صغيرة تنمُّ عن الاستمتاع. ليست ابتسامة هازئة، فليس هذا أسلوبه، بل مندهشة فقط، تشي بالإنكار.

وأجاب: «لا».

- أعِد النّظر إذًا. دائمًا النّاس يبحثون عن شيء ما، شخص ما، يبحثون. الكلام والموهبة والحبُ والجنس، كل هذا جزء من الشّيء نفسه، البحث نفسه. والآلهة أيضًا. الإنسان يختلق الآلهة لأنه يخشى الوحدة، يخاف الكون الخالي، يخاف السّهل المدلهم. لهذا يعتنق رجالك ديانة الإشكين يا دينو، لهذا يدخلها النّاس. لقد وجدوا الله، أو أقرب ما سيجدونه إلى الله يومًا. الاتّحاد عقل جمعي، عقل جمعي خالد، كثيرون في واحد، وكله حب. الإشكين لا يموتون! لا عجب أنهم لا يعرفون مفهوم الآخرة. إنهم يعلمون يقينًا أن لله وجودًا. ربما لم يخلق الكون، لكنه حب، حبٌ خالص، ويُقال إن الله محبّة، أليس كذلك؟ أو لعلَّ ما نُسمّيه الحبَّ جزءًا ضئيلًا من الله. لا أبالي. أيًا كان فإنه الاتّحاد. آخر مشوار بحث الإشكين، والإنسان أيضًا. اتضح في النّهاية أننا متشابهون، متشابهون إلى درجةٍ مؤلمة.

أطلق ڤالكارنجي زفرته المبالغ فيها قائلًا: «روب، أنت منفعل. تتكلم كأحد الأضمّاء».

- وقد يكون هذا ما ينبغي أن أصيره. ليا منهم. إنها جزء من الاتّحاد الآن.

حملق إليّ متسائلًا: «كيف تعرف ذلك؟».

- لقد جاءتني البارحة في حلم.

- أوه، حلم.

- كان حقيقيًا لا محالة! كل ما ذكرته حقيقي.

قام ڤالكارنجي مبتسمًا، وقال: «أصدقك. أي إنني أصدق أن الجريشكة تستخدم نوعًا من الطُعم الفائق للحواس -لك أن تقول إنه طعم حب- لتستدرج فريستها، شيئًا في منتهى القوّة حتى إنه يقنع البشر -حتى أنت- بأنه الله. شيء خطير بالطّبع. عليّ أن أفكر في هذا قبل أن أتّخذ أي إجراء. يمكننا وضع حراسة على الكهوف لنمنع البشر من دخولها، لكن الكهوف كثيرة جدًّا، كما أن عزل الجريشكة لن يفيد علاقاتنا مع الإشكين. لكنها مشكلتي أنا الآن. لقد أدّيت عملك».

انتظرت حتى فرغ لأقول: «أنت مخطئ يا دينو. كل هذا حقيقي، ليس خدعة، ليس وهمًا. لقد شعرت به حقًّا، وليا أيضًا. الجريشكة لا تتمتّع بمجرد نعم-أنا-حي، ناهيك بطعم فائق للحواس بالقوة الكافية لاجتذاب الإشكين والبشر».

- أتتوقّع أن أصدّق أن الله ما هو إلا حيوان يعيش في كهوف شكيا؟

- نعم.

- هراء يا روب، وأنت تعلم هذا. تخال أن الإشكين عثروا على حلّ ألغاز الخلق، ولكن فلتنظر إليهم. أقدم جنس حضاري في الفضاء المعروف، ومع ذلك عالقون في العصر البرُنزي منذ أربعة عشر ألف سنة. نحن مَن جئنا إليهم. أين سُفنهم الفضائية؟ أين أبراجهم؟

- أين أجراسنا؟ وأين بهجتنا؟ إنهم سعداء يا دينو. أنحن سعداء؟ ربما عثروا

فعلًا على ما نبحث عنه حتى الآن. ما الذي يدفع الإنسان بكل هذا العزم أصلًا؟ لماذا خرج ليغزو المجرة أو الكون أو أيًا كان؟ بحثًا عن الله ربما؟ ربما، غير أنه لا يجده في أي مكان، وهكذا يستمرُ، يستمرُ ويستمرُ، يبحث دومًا، ودومًا يرجع في النّهاية إلى السّهل المدلهم ذاته.

- قارِن الإنجازات. عن نفسي أوثرُ سجلَّ الإنسانية.

- وهل يستحقُّ؟

أجاب: «أظن هذا»، وذهب عند النّافذة ونظر إلى الخارج، ثم أردف مبتسمًا وهو ناظر إلى أسفل عبر السّحاب: «إن لدينا البرج الوحيد في عالمهم».

رددتُ: «إن لديهم الإله الوحيد في كوننا».

اكتفى بابتسامة، ولما التفت عن النّافذة أخيرًا قال: «ليكن يا روب. سآخذ المسألة بعين الاعتبار، وسنجد لك ليا».

لانت لهجتي إذ قلت: «ليا ضاعت. الآن أدرك هذا. أنا أيضًا ضائع إذا انتظرت. سأغادر اللّيلة. سأحجز رحلة على أول سفينة ذاهبة إلى بالدَر».

أومأ برأسه قائلًا: «كما تريد. سأجهِّز أجرك»، وأضاف بابتسامة عريضة: «وسنرسل ليا بعدك عندما نعثر عليها. أتصوَّر أنها ستنزعج بعض الشّيء، لكن عليك أنت أن تحمل همَّ هذا».

لم أردّ، وبدلًا من ذلك هززت كتفيَّ واتجهت نحو الأنبوب، وعندما كدت أبلغه وقفَني ڤالكارنجي بقوله: «انتظر. ما رأيك في تناوُل العشاء معنا اللّيلة؟ لقد أدّيت عملًا طيبًا لنا. أنا ولوري سنقيم حفلة وداع على كل حال. هي أيضًا راحلة».

- آسف.

دوره ليهزّ كتفيه. «لِمَ؟ لوري إنسانة جميلة، وسأفتقدها، لكنها ليست مأساة. يوجد أناس جميلون غيرها. أظنُّها بدأت تسأم شكيا على كل حال».

في حرارة انفعالي وألم خسارتي كدت أنسى موهبتي، إلا أنني تذكّرتها في تلك اللّحظة، وقرأته. لم يكن في داخله أسى ولا ألم، بل مجرد إحباط باهت، وتحته الشور. دائمًا سوره الذي يفصله عن الآخرين، هذا الرّجل صديق الجميع، الذي يدعوهم بأسمائهم الأولى ولا حميمية بينه وبين أحد منهم، كأن فوق الشّور لافتة تقول: **لك أن تبلغ هذا الحدّ ولا تتجاوزه.**

Telegram:@mbooks90

قال: «تعالَ. سنقضي وقتًا ممتعًا».

وأومأت برأسي موافقًا.

***

سألت نفسي حين أقلعت سفينتي عن سبب رحيلي.

لأعود إلى الوطن ربما. إن لنا منزلًا على بالدَر، بعيدًا عن المُدن في إحدى القارّات غير المتطورة، حيث جارتنا الوحيدة البراري. المنزل مُقام على جُرف، فوق شلال مرتفع يتدفّق بلا منتهى إلى بركة خضراء ظليلة. كثيرًا سبحت هناك مع ليا في أيامنا المشمسة بين التّكليفات، قبل أن نتمدّد عاريَين في ظل شجر بُهار البرتقال، ونمارس الحبّ على بساط من الطّحالب الفضية. قد أكون عائدًا إلى ذلك، لكني لن أجده كما اعتدته من غير ليا، ليا التي ضاعت...

ليا التي ما زال بإمكاني أن أحظى بها، التي بإمكاني أن أحظى بها الآن. لكم سيَسهُل هذا، لكم سأجده في غاية السّهولة. تمشية بطيئة داخل كهف معتم وغفوة قصيرة، ثم ليا معي إلى الأبد، في داخلي، تتشاركني، هي أنا، وأنا هي.

نتبادل حبًا ومعرفة أغزر ممّا يستطيع أي إنسان. الاتّحاد والفرحة، ولا ظلام ثانيةً أبدًا. الله. ولكن إن صدّقت ذلك، ما قلته لڤالكارنجي، فلِمَ قلت لليا لا؟

ربما لأني لست واثقًا. ربما ما زلت آمل أن أجد شيئًا أعظم، شيئًا محبًا أكثر من الاتّحاد ومن الإله الذي حكوا لي عنه قديمًا. ربما أجازف لأن جزءًا مني لا يزال مؤمنًا. ولكن لو أني مخطئ... فهو الظّلام، والسّهل...

ومُحتمَل أنه شيء آخر، شيء رأيته في ڤالكارنجي وجعلني أشكّ في ما قلته. ذلك أن الإنسان يتجاوز الإشكين بشكل ما، لأن في العالم أناسًا مثل دينو وجورلاي، بقدر ما فيه أمثال ليا وجوستافسن، أناسًا يخشون الحبّ والاتّحاد بقدر ما يشتهونهما. إنه انقسام ثنائي إذًا. للإنسان حافزان أوّليان وللإشكين واحد؟ إن صحّ ذلك فقد يوجد حلٌّ بشري يتيح للإنسان أن يمدّ نفسه وينضمّ ويخرج من وحدته، ومع ذلك يبقى إنسانًا.

لست أحسد ڤالكارنجي. أظنّه يبكي وراء سوره وما من أحدٍ يعلم، بمن في ذلك هو، ولا أحد سيعلم أبدًا، وفي النّهاية سيبقى وحده دومًا في ألمه الباسم. لا، لست أحسد دينو.

لكن فيّ شيئًا منه يا ليا بقدر ما فيّ شيء منكِ، ولذا هربتُ مع أني أحبّكِ.

كانت لوري بلاكبرن على متن السّفينة معي. بعد الإقلاع أكلت معها، ومساءً

تجاذبنا أطراف الحديث فيما شربنا النّبيذ. ربما لم تكُن محادثة سعيدة، لكنها إنسانية. كلانا احتاج إلى أحد، وهكذا مددنا نفسينا.

Telegram:@mbooks90

بعد ذلك أخذتها إلى قمرتي وطارحتها الغرام بكلّ طاقتي، ثم رقّت الظُّلمة وتعانقنا وقضينا اللّيل في الكلام.

شاطئ دوڤر (١٨٦٧)

ماثيو آرنولد

البحر اللّيلة هادئ.

المدُّ في ذُروته، والقمر نيِّر فوق المضيق

وعلى السّاحل الفرنسي يتوهّج الضّوء ويخبو

وترتفع جروف إنجلترا بارقةً هائلةً

بارزةً من الخليج السّاكن.

تعالي عند النّافذة، فهواء اللّيل عليل!

ولكن، من خطّ الرّذاذ الطّويل

حيث يلتقي البحر واليابسة التي بيّضها القمر

أصغي! ستسمعين الهدير المُدوّي

إذ يسحب الموج الحصى، ويقذفه حين يعود

على الشّاطئ العالي

يبدأ ويهدأ ثم يبدأ من جديد

بإيقاعٍ راجف بطيء

ويجلب معه نغمة الحزن الأبدية.

سوفوكليس من قديم

سمع النّغمة عند وقوفه على بحر إيجة

فوجّهَت عقله إلى

ما في مدّ البؤس البشري وجَزره من اضطراب

ونحن أيضًا نجد في هذا الصّوت فكرةً

حينما نسمعه على شاطئ هذا البحر الشّمالي البعيد.

بحر الإيمان أيضًا

كان في ذُروة الطّمّ يومًا

وحول سواحل هذه الأرض

التفّ كطيّات نطاقٍ زاهٍ.

أما الآن فلا أسمع إلا

هديره المُنسحِب الكئيب الطّويل

عائدًا إلى أنفاس رياح اللّيل

نحو أطراف العالم المترامية الموحشة

وحصبائه العارية.

آهِ يا حبيبتي

فليُخلِص كلانا للآخر

فالعالم الذي يبدو كأنما يمتدُّ أمامنا

كأرضٍ من الأحلام

مُتنوّعًا جدًّا، جميلًا جدًّا، جديدًا جدًّا

في حقيقته لا يحمل فرحًا ولا حُبًّا ولا نورًا

ولا يقينًا ولا سلامًا ولا غوثًا من الألم

ونحن هنا كأننا في سهلٍ مُدلهِمٍّ

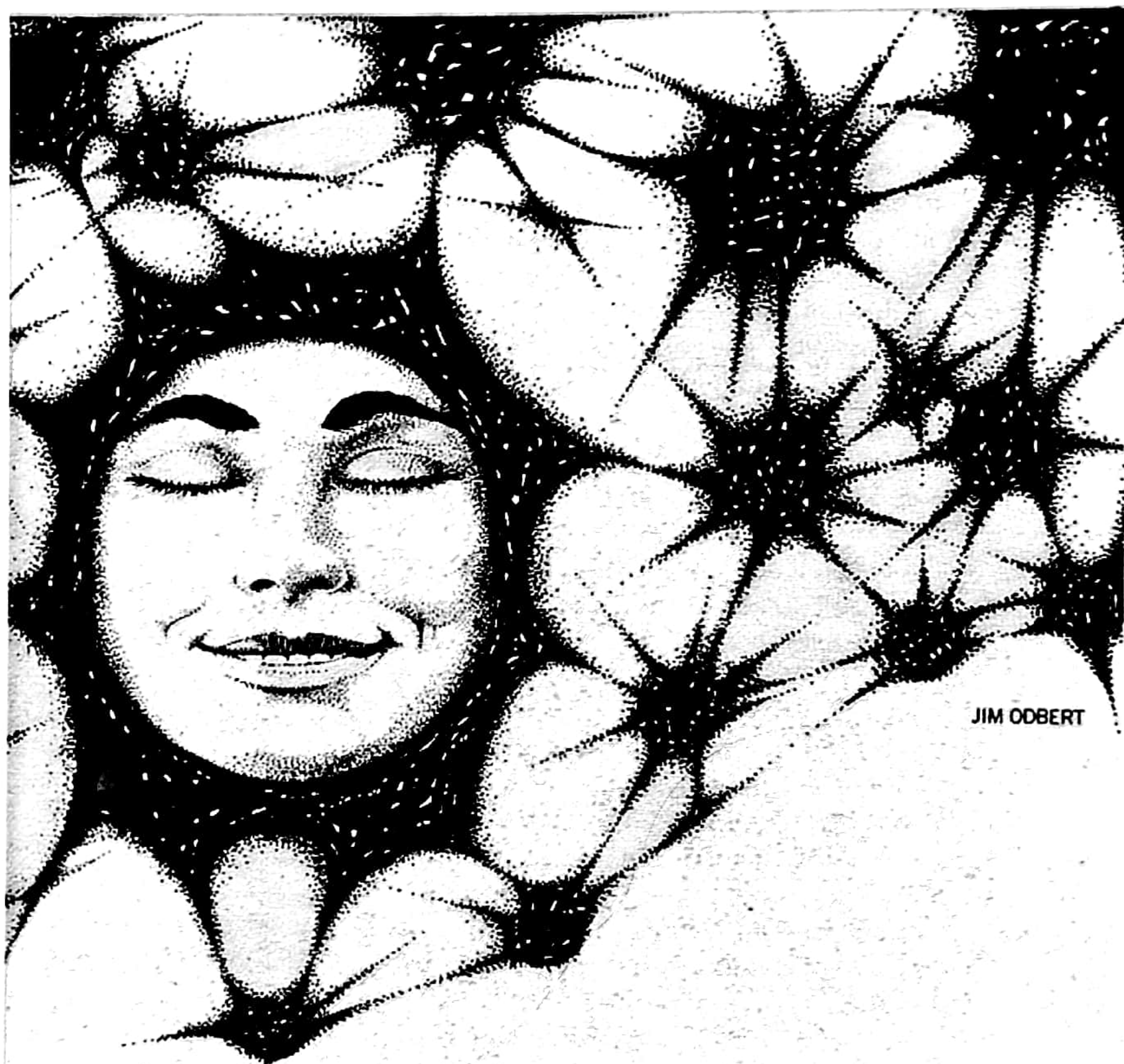
تكتسِحنا معمعة القتال والفرار

حيث تلتحم جُيوش الجهل في آناء اللّيل.

---

(1)اللّاموس: نوع من القوارض، كان يُعتقَد أنه انتحاري لأن أعدادًا كبيرةً منه تُلقي بنفسها في البحر عند الهجرة، قبل أن يتبيّن أن فزعه وارتباكه من الأماكن الجديدة هو ما يدفعه إلى الشقوط في البحر. (المُترجم)

صفحات من عدد يونيو 1974 من مجلة «الخيال العلمي التّناظري والواقع»، حيث نُشِرت «أغنية من أجل ليا» للمرّة الأولى بتحرير بِن بوڤا، مصحوبةً برسوم لچيم أودبرت.



GEORGE R. R. MARTIN

For the sword outwears its sheath,
And the soul wears out the breast,
And the heart must pause to breathe,
And Love itself have rest.

—Byron

A SONG FOR LYA

چورچ ر. ر. مارتن

وُلد في سبتمبر عام 1948 بولاية نيو چرسي، واتَّجه إلى الكتابة في سنٍّ صغيرة، فبدأ يبيع القصص التي يَكتُبها لأطفال الحي، وأحيانًا مثَّلها لهم أيضًا. التحقَ مارتن بجامعة نورثوسترن ليَحصُل على درجتَي البكالوريوس والليسانس في الصِّحافة، ثم عمل أستاذًا للصِّحافة بالجامعة فترةً واصل فيها نشر قصصه ومقالاته في الصُّحف والمجلَّات المختلفة. قضى مارتن عشر سنوات في هوليوود، اشترك خلالها في كتابة وإنتاج عددٍ من المسلسلات التليفزيونية المعروفة في الثَّمانينيَّات، قبل أن يُقرِّر العودة إلى تأليف الكُتب وتقديم أفكاره كلِّها فيها، حيث لا عقبات إنتاجيَّة أو ماليَّة تعوقه عن بناء العوالم الضَّخمة التي يتخيَّلها.

تُرجِمت لمارتن إلى العربيَّة الأجزاء الصادرة من سلسلته «أغنيَّة الجليد والنَّار»، و«النَّار والدَّم»، و «تنِّين الجليد»، وكتاب من سلسلة «بطاقات جامحة» التي يُحرِّرها.

هشام فهمي

مُترجم وكاتب مصري، وُلد بالإسكندريَّة في عام 1983، ودرسَ الأدب الإنجليزي والتَّرجمة بجامعة الإسكندريَّة، وعملَ مُترجمًا وكاتبًا في بعض الصُّحف والمجلَّات. ترجمَ فهمي عددًا كبيرًا من الأعمال العالميَّة، ينتمي أكثرها إلى أدب الفانتازيا. من أعماله المترجَمة: «الهوبيت» لچ. ر. ر. تولكين، «أغنيَّة الجليد والنار» و«تنِّين الجليد» لچورچ ر. ر. مارتن، «فرانكنشتاين» لماري شِلي، «المحيط في نهاية الدَّرب» و«كورالاين» و«الحقيقة كهف في الجبال السَّوداء» و«آلهة

أمريكيَّة» و«غُبار النُّجوم» لنيل جايمان، «سرسي» لمادلين ميلر، «الناجي الأخير» و«أغنيَّة المهد» لتشاك پولانك، «أضواء الشَّمال» لفيليپ پولمان، «300» لفرانك ميلر، «نداء الوحش» لپاتريك نِس، «الفريسة الأخطر» لريتشرد كونل.